عثمان بن ارطغرل

عثمان بن أرطغرل.. قصة تأسيس الدولة العثمانية

الكاتب: أحمد المنزلاوي

الطبعة: السادسة (الأولى للدار)

رقم الإيداع: 26167/ 2021

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6916 - 53 - 1

تنسيق داخلي
مركز وَدُود للصف وتجهيز الكتب
010 91 888 682

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

EUREKA
FOR PUBLISHING SERVICES

01288627690
eureka4publishing@gmail.com

يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأي وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابي من دار النشر

عثمان بن أرطغرل

قصة تأسيس الدولة العثمانية

(طبعة منقحة ومزيدة)

تأليف

أحمد المنزلاوي

روائي وباحث في التَّاريخ والعُلوم الإسلاميَّة

عضو الاتّحاد الدولي للغة العربيَّة - بيروت

عضو اتّحاد كُتّاب مِصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مصرف الأيام والليالي، ومعرف العباد كثيرًا مما سلف في الأزمان الماضية والدهور الخوالي، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق ومشرف هذه الأمة بتاريخها المتوالي، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لهم من السادات والموالي.

أما بعد:

فتاريخ البشرية ماض وحاضر ومستقبل، والتخوم الفاصلة بين هذه الأدوار تكاد تكون ذائبة؛ والماضي يعيش فينا ولا نستطيع إنكاره، والمستقبل فينا كالماضي سواء بسواء، إنها أضلاع الزمان الثلاثة التي لا تنفصل.

وعندما يتم الضغط علىٰ الماضي وحده تصاب الأمة بمرض الغياب التاريخي، كما أن الضغط علىٰ الحاضر -دون وعي بالماضي- غياب عن الذات، مغامرة بالحضارة كلها؛ في رحلة ضياع لسفينة بعدت عن معالمها ومرافئها الثابتة!!

إن نهر الزمان متدفق موصول لا تكاد تنفصل فيه لحظات الماضي عن لحظات الحاضر عن المستقبل، ويبقىٰ التاريخ هو خارطة المستقبل، والشمس التي تنير الطريق لأجيال متعاقبة، فمن يقرأ التاريخ يفهم ما يحدث علىٰ وجه الأرض من أمور، فلا يُخدع

بسهولة، مهما تفاقمت المؤامرات، ومهما تعددت وسائل المكر والمكيدة وكأنه يرىٰ المستقبل بالفعل ويخطط له!! إنه يعرف بوضوح أين يضع قدمه، ويعرف كذلك كيف يقود نفسه ومجتمعه وأمته.. لذلك تقول الأديبة الأمريكية «بيرل باك» **Pearl S. Buck**: «لو أردتَ فهم الحاضر فادرس الماضي».

والحياة الإنسانية فوق ظهر الأرض متشابهة في استقامتها وانحرافها، والنماذج البشرية -المنحرف منها والمستقيم- نماذج مكررة، وكثير من الناس يرون الحق من خلال الواقع العملي أكثر مما يعرفونه من خلال التعاليم المجردة، لذلك كانت القصة من أهم وسائل التربية، فالتربية بالقصة، وتوصيل المعنىٰ بالإحساس، وتحقيق الهدف بالمثال، من أفضل الأساليب التربوية وأكثرها نجاحًا وأنجعها نتيجة إن شاء الله تعالىٰ.

والدارس لتاريخ المسلمين لا بد أن يقف وقفات كثيرة مع «الدولة العثمانية»، فلقد احتل التاريخ العثماني مساحة زمانية ومكانية مديدة ربطت بين العصرين الوسيط والحديث، والجناحين الشرقي والغربي، علىٰ مدىٰ أكثر من ستة قرون متتالية.

لقد شهدت الدولة العثمانية مرحلة المخاض العسير في الانتقال بين العصرين الوسيط والحديث، حيث سقطت دول وإمبراطوريات وقامت أخرىٰ، وزالت أسرات حاكمة وظهرت

أخرىٰ، وأعيد تقسيم مناطق الربع المسكون من العالم من جديد.
وفي خلال هذه المرحلة، لعبت الدولة العثمانية دورًا مهمًّا في منطقة امتدت من بلاد فارس والخليج العربي شرقًا وحتىٰ بلاد النمسا والمغرب غربًا، ومن جنوب موسكو والقفقاس وبولندا شمالًا وحتىٰ بلاد الحبش والمحيط الهندي جنوبًا، فكانت العنصر الفعال في حالات المد والجذر في تلك المنطقة سواء في خلال عصر نشأتها وازدهارها أم في عصر الضعف والانهيار.
والدارس لتاريخ العثمانيين لا بد أن يقف وقفة مع ذلك الذي ينتسبون إليه؛ «عثمان»، كيف أسس تلك الدولة؟ وكيف كانت شخصيته؟ كيف عاش وماذا صنع؟ إلىٰ غير ذلك من الأسئلة التي تلح في تاريخ القادة والبارزين.
والحقيقة أن المعلومات التاريخية قليلة جدًّا عن شخصية المؤسس، وبعضها نلمح فيه النسج الشعبي الأسطوري، وكثير منها غير موثق، مع ما يعتري البعض من انحيازٍ عرقي، وقد يشوب البعض شيء من التناقض والاضطراب، ويمكننا الإعذار في ذلك؛ لأن شخصية عثمان سارت في مسير تدرجي نشأة من القبيلة إلىٰ الدولة، ومن البداوة إلىٰ الحضارة، وهذا ليس بجاذب للمؤرخين، فهو مرتحل كأي مرتحل، وغازٍ كأي غازٍ، حتىٰ بعد جلوسه علىٰ عرش السلطنة لم يدعُ نفسه سلطانًا أو ملكًا! وإنما دُوِّن تاريخه

وتاريخ والده وقبيلته فيما بعد؛ لما صار للدولة سلطان ونفوذ علىٰ خريطة العالم، وإن أقدم مصدر معروف عن تلك الفترة كُتب بعد حوالي مائة سنة من وفاة عثمان.

لكننا -ولله الحمد- حاولنا استقراء وتمحيص هذا المتوفر من المعلومات التاريخية، وجمع متفرقه في نسجٍ واحد أقرب للرؤية المتكاملة لحياة عثمان بن أرطغرل، فدونكَ هذه الرحلةَ الشائقة ترتحلها مع هذا البطل العظيم، لتكون بطلًا مثله، في الميدان الذي يحتاج إليك.

كتبه/

١١ ربيع الآخر ١٤٤١هـ

٨ ديسمبر ٢٠١٩م

إضاءة

قال تعالىٰ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الباب الأول

ما قبل الحكاية

«إن تأسيس العثمانيين للدولة الجديدة يُعد من أكبر الأحداث وأكثرها إثارة للدهشة في مسرح التاريخ البشري، فلقد كانت بداية التأسيس خارقة للعادة مقارنة بما آل إليه أمر دولتهم، فقد بدءوا بعملٍ صغيرٍ جدًّا حقق نتيجة كبيرة».

فرناند جرينارد
مُؤرخ فرنسي

تمهيد عن العصر[1]

لا أحب أن أتناول تاريخ الأفراد دون تعميق النظر في عصرهم وما يدور فيه، خصوصًا هذه الفترة التي خرج فيها عثمان وتأسس فيها سلطانه؛ لذلك سنلقي بعض الضوء علىٰ هذه الحقبة التاريخية وننظر إليها نظرة أفقية مستوعبة لأحوالها.

في أوائل القرن السابع الهجري كانت حدود البلاد الإسلامية تبدأ من غرب الصين، وتمتدُّ عبر آسيا وإفريقيا لتصل إلىٰ غرب أوربا؛ حيث بلاد الأندلس.. وهي مساحة شاسعة للغاية، لكن وَضْع العالم الإسلامي -للأسف الشديد- كان مؤلمًا جدًّا؛ فمع المساحات الواسعة من الأرض، ومع الأعداد الهائلة من البشر، ومع الإمكانيات العظيمة من المال والمواد والسلاح والعلوم -مع كل هذا فإنه كانت هناك فُرقة شديدة في العالم الإسلامي، وتدهور كبير في الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية، والغريب أن هذا الوضع المؤسف كان بعد سنوات قليلة من أواخر القرن السادس الهجري؛ حيث كانت أُمَّة الإسلام قوية منتصرة متحدة رائدة[2].

---

(١) راجع مزيد من التفاصيل في كتابنا: «أرطغرل قصة بناء وطن»، دار التقوىٰ ٢٠١٨.

(٢) السرجاني، راغب: قصة التتار ، (ص٧)، دار أقلام ٢٠١٣.

ولكن هذه سُنة ماضية:

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠].

وفي هذه الأسطر نُلْقِي نظرة سريعة علىٰ العالم الإسلامي وقتها:

الدويلات والإمارات الإسلامية أوائل القرن السابع الهجري

١- **الخلافة العباسية**: وهي خلافة قديمة جدًّا؛ فقد نشأت بعد سقوط الدولة الأموية العظيمة في سنة (١٣٢هـ)، وكانت -في هذا الوقت- قد ضعفت جدًّا، حتىٰ أصبحت لا تُسيطر حقيقة إلا علىٰ العراق، وتتخذ من بغداد عاصمة، وحول العراق عشرات من الإمارات المستقلَّة استقلالًا حقيقيًّا عن الخلافة، وإن كانت لا

تُعلن نفسها خلافة منافسة للخلافة العباسية.. فكانت «صورة خلافة» وليست خلافة حقيقية!! وكانت الرمز الذي يحب المسلمون أن يظلَّ موجودًا؛ حتىٰ إن لم يكن له دور يُذكر، بخلاف الخليفة العباسي الذي كان يحكم فعليًّا منطقة العراق باستثناء الأجزاء الشمالية منها.

وكان ما يشغل الخلفاء -هذا الوقت- هو البقاء أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم، وتوريث الحكم لأبنائهم، وتمكين أفراد عائلتهم من رقاب الناس، وكذلك كانوا يحرصون علىٰ جمع الأموال الكثيرة، والتحف النادرة، ويحرصون علىٰ إقامة الحفلات الساهرة، وسماع الأغاني والموسيقىٰ والإسراف في اللهو والطرب، فكانت حياتهم لا تصلح أن تكون لفرد من عوامِّ أُمَّة الإسلام؛ فضلًا عن أن تكون لحاكم أُمَّة الإسلام! ولا يمنع هذا من ظهور خليفة قوي تساعده بعض الظروف علىٰ القيام ببعض الإصلاحات، ولكنها صحوات تشبه صحوات الذي يعاني سكرات الموت[1].

(١) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، علي عبد الحليم محمود، (ص٥٧) دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٣م.

٢- **مصر والشام والحجاز واليمن**: كانت هذه الأقاليم في أيدي الأيوبيين أحفاد صلاح الدين الأيوبي، ولكنهم – للأسف - لم يكونوا علىٰ شاكلة ذلك الرجل العظيم؛ بل تنازعوا الحكم فيما بينهم، وقسَّموا الدولة الأيوبية الموحَّدة -التي هزمت الصليبيين في حطين هزيمة منكرة- إلىٰ ممالك صغيرة متناحرة! فاستقلَّت الشام عن مصر، واستقلَّت كذلك كلٌّ من الحجاز واليمن عن الشام ومصر؛ بل قُسِّمَت الشام إلىٰ إمارات متعدِّدة متحاربة! فانفصلت حِمصُ عن حلبَ ودمشق.. وكذلك انفصلت فِلَسطين والأردنّ، وما لبثت الأراضي التي كان حرَّرها صلاح الدين من أيدي الصليبيين أن تقع من جديد في أيديهم بعد هذه الفُرقة، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم!

٣- **بلاد المغرب والأندلس**: كانت تحت إمرة «دولة الموحدين»[1]، وقد كانت فيما سبق دولة قوية مترامية الأطراف تحكم مساحة تمتدُّ من ليبيا شرقًا إلىٰ المغرب غربًا، ومن الأندلس شمالًا إلىٰ وسط إفريقيا

(١) **الموحدون، أو الدولة الموحدية**: هم سلالة أمازيغية حكمت بلاد المغرب (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) والأندلس سنوات ١١٢١م - ١٢٦٩م أسسها أتباع حركة محمد بن تومرت، واستطاع عبد المؤمن بن علي الكومي (١١٣٠م / ١١٣٣م - ١١٦٣م) أن يستحوذ علىٰ المغرب الأقصىٰ (١١٤٧م) والمغرب الأوسط ومن ثم علىٰ كامل إفريقية (حتىٰ تونس وليبيا عام ١١٦٠م) والأندلس (١١٤٦م - ١١٥٤م). كانت عاصمتها مراكش. وكانت إشبيلية مقر الوالي الموحدي علىٰ الأندلس.

جنوبًا، ومع ذلك ففي أوائل القرن السابع الهجري كانت هذه الدولة قد بدأت في الاحتضار؛ وخاصةً بعد موقعة «العُقَاب» الشهيرة سنة (٦٠٩هـ=١٢١٣م)، والتي كانت القاضية علىٰ هذه الدولة الضخمة.

٤- **خوارزم**[١]: كانت الدولة الخوارزمية دولة مترامية الأطراف، وكانت تضمُّ معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا؛ تمتدُّ حدودها من غرب الصين شرقًا إلىٰ أجزاء كبيرة من إيران غربًا، وكانت هذه الدولة علىٰ خلاف كبير مع الخلافة العباسية، وكانت بينهما مكائدُ ومؤامراتٌ متعدِّدة، ومالت الدولة الخوارزمية في بعض فترات من زمانها إلىٰ التشيع، وكثرت فيها الفتن والانقلابات، وقامت في عصرها حروب كثيرة مع السلاجقة والغوريين[٢] والعباسيين وغيرهم من المسلمين.

٥- **الهند**: كانت تحت سلطان الغوريين في ذلك الوقت، وكانت الحروب بينهم وبين دولة خوارزم كثيرة ومتكرِّرة.

٦- **فارس**: وهي إيران الحالية، وكانت أجزاء منها تحت سلطان الخوارِزميين، وكانت الأجزاء الغربية منها -والملاصقة للخلافة

---

(١) ذكر الأستاذ عبود الشالجي، في «الكنايات البغدادية» أنها تكتب «خوارزم» وتقرأ «خارزم».

(٢) **الغوريون**: سلالة كانت تقطن إقليم الغور وإليه تنسب، حكمت في أفغانستان وشمال الهند، دخلت في الإسلام في القرن الـ ١١ م. وحكمت في الفترة (٥٤٣ - ٦١٢ هـ = ١١٤٨ - ١٢١٥م).

العباسية- تحت سيطرة طائفة الإسماعيلية، وهي طائفة من طوائف الشيعة الباطنية كانت شديدة الخبث، وقد كانت سببًا دائمًا لتحريف العقيدة والدين، ولقلب أنظمة الحكم الإسلامية، ولاغتيال الشخصيات الإسلامية البارزة؛ سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو علماء أو قادة.

٧- **الأناضول (تركيا)**: وهذه المنطقة كانت تُحكم بسلاجقة الروم، وأصول السلاجقة ترجع إلىٰ الأتراك، وكان لهم في السابق تاريخ عظيم وجهاد كبير؛ وذلك أيام القائد السلجوقي الفَذّ «ألب أرسلان»[1]، ولكن -مع الأسف- الأحفاد الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة الخَطِرة والملاصقة للإمبراطورية البيزنطية كانوا علىٰ درجة شنيعة من الضعف؛ أدَّت إلىٰ مواقف مؤسفة من الذلِّ والهوان.

***

(١) ألب أرسلان (ت ٤٦٥هـ): «وهو اسم تركي معناه شجاع أسد، فألب شجاع، وأرسلان أسد»، الملقب عضد الدولة ألب أرسلان، وهو ابن أخي السلطان طغرلبك بطل موقعة «ملاذكرد».

صراع وضياع!

كانت علامات الضعف قد ظهرت علىٰ الخلافة العباسية في بغداد، بدأت جذور هذا الضعف منذ سيطرة العناصر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافًا بين العرب والفرس وما تلا ذلك من أحداث أدت إلىٰ دخول العناصر التركية إلىٰ السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلىٰ السلطة ثلاثة عناصر، هي: العرب والفرس والأتراك، وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بُوَيْهٍ[1] -الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران- في السلطة، وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في السيطرة علىٰ الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان وطغىٰ نفوذهم علىٰ نفوذ الخلفاء العباسيين وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تمامًا، ولكنهم لم يُقْدموا علىٰ هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السُّني؛ لأن دولة بني بُويه كانت من طائفة الشيعة، وكان لهذا كله أثره الكبير علىٰ هيبة الخلفاء

(١) **بنو بُوَيْهٍ، أو الدولة البويهية**: دولة شيعية قامت في الجزء الغربي من إيران وفي العراق، وأسستها أسرة بني بويه. حكمت في الفترة (٩٣٢- ٩٤٥هـ = ١٠٥٦- ١٠٦٢ م). وأشهر رجال أسرة بني بويه الحاكمة ثلاثة هم: عليّ والحسن وأحمد أبناء بويه. وتعود أصول هذه الأسرة إلىٰ الفرس.

العباسيين، وبدأ حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم والاكتفاء بالولاء الاسمي للخلافة العباسية، ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية (أو الانفصالية) بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ محاولة البعض الانفراد بالسلطة، وتعرضت الخلافة العباسية لسيطرة الأتراك السلاجقة -بعد أن أزالوا النفوذ البُويهي من بغداد- وبقي الخليفة في بغداد أو بالأحرىٰ في قصره لا حول له ولا قوة، وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضي والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن، وعندما انهار سلطان السلاجقة العظام كانت أعالي الفرات وشمال الشام ثم جنوبه دويلات لا تتعدىٰ المدينة وما حولها فعمل الزَّنكيون[1] علىٰ توحيدها ودخلت في صراع مع الدولة الفاطمية[2]

(١) **الزِّنكِيُّون، أو الدَّولَةُ الزِّنكِيَّةُ**: إمارة إسلاميَّة أسَّسها عمادُ الدين الزنكي في الموصل، وامتدَّت لاحقًا لِتشمل كامل الجزيرة الفُراتيَّة والشام، ثم بلغت مصر في عهد نور الدين محمود، الذي ضمَّها علىٰ يد تابعه ورَبِيبه صلاح الدين الأيوبي، بعد وفاة آخر الخُلفاء الفاطميين العاضد لِدين الله دون عقب.

(٢) تسمية تلك الدولة بالفاطمية تسمية كاذبة أراد بها أصحابها خداع المسلمين بالتسمي باسم بنت رسول الله ﷺ وقد بين العلماء والمؤرخون فى ذلك الزمان كذب تلك الدعوىٰ قال ابن إياس الحنفي: «قيل: إن بعض العلماء أثبت لهؤلاء الفاطميين نسبًا فاسدًا، بأنهم من ولد فاطمة بنت رسول الله، ﷺ، وهذا النسب ليس بصحيح، وإنما هم من ولد ديصان بن سعيد، وكان أصله مجوسيًا. وقد وافق علىٰ ذلك جماعة من العلماء، منهم الشيخ أبي حامد الإسفراييني، والشيخ

بمصر، وانفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكريًّا عن مواجهة أي غزو عسكري[1].

كانت الدولة الخوارزمية قد استقلت استقلالًا تامًّا عن دولة السلاجقة، التي كانت إحدىٰ إماراتها من قبل ثم شنت عليها العداء ودارت بينهما حروب في سنوات كثيرة إلىٰ أن أزالوا بذلك

=

أبي الحسين القدوري، وغير ذلك من العلماء»[بدائع الزهور لابن إياس ١/ ١٩٦ بتحقيقي، مكتبة التقوىٰ ناشرون ٢٠٢١م].

فالنسبة الصحيحة لهذه الدولة أن يقال «الدولة العبيدية» وانظر لتفاصيل إشكالية النسب الفاطمي في كتابي: «للتاريخ أقوال أخرىٰ» ص ٢١٢، الطبعة الثالثة دار يوريكا، ٢٠٢١م.

والعبيديون طائفة متطرفة جدًّا من الشيعة، يقولون بكل عقائد الشيعة وأكثر، ويُحَرِّفون تحريفاتهم وأشد، وقد سيطروا علىٰ المغرب سنة (٢٩٦هـ= ٩٠٨م)، ثم انتشروا في شمال إفريقيا، وأقاموا هذه الدولة، علىٰ قتل علماء السُّنَّة واضطهادهم، وأذاقت الناس العذاب ألوانًا، وأظهرت من الفسق والفجور والمنكرات، وتغيير العقائد والأخلاق ما لا يُتَخَيَّل، وكانوا جميعًا من طائفة الإسماعيلية، وهي إحدىٰ الطوائف المنشقَّة عن الشيعة، وكانوا يُظهِرون سبَّ الصحابة بل والأنبياء، بل ورسول الله ﷺ؛ ومن ذلك ما كان ينادي به القائم ابن المهدي في الأسواق: «العنوا عائشة وبعلها، العنوا الغار وما حوىٰ». وكانوا يضربون عنق مَنْ أظهر حُبَّ أبي بكر أو عمر، ويقطعون لسان مَنْ قال في الأذان: (حي علىٰ الفلاح)؛ لأنهم يستبدلون بها: (حي علىٰ خير العمل). ومنكرات أخرىٰ كثيرة مطولة مسجلة في كتب التاريخ. انظر أخبارهم في: الكامل في التاريخ لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة المقدسي.

(١) المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس، محمود عمران (ص١٨)، دار المعرفة الجامعية قناة السويس مصر، ٢٠٠٥م.

سلطان السلاجقة عن العراق[1]، وأدىٰ هذا التجاور المكاني علىٰ حدود الخلافة العباسية إلىٰ صراع جديد بين علاء الدين ابن خوارزم شاه[2] وبين الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) كان سيؤدي إلىٰ اقتحام عاصمة الخلافة بغداد لولا مهاجمة التتار المغول لبلاد خوارزم.

أحدث ظهور التتار انقلابًا للموازين كلها وتغييرًا لخريطة العالم في ذلك الوقت بل صاروا القوَّة الأولىٰ في الأرض في النصف الأول من القرن السابع الهجري.

ظهرت دولة التتار في سنة (٦٠٣هـ= ١٢٠٦م) تقريبًا، وكان ظهورها الأول في «منغوليا» في شمال الصين، وكان أول زعمائها هو «جنكيز خان[3]»[4].

وكان «جنكيز خان» قائدًا عسكريًّا شديد البأس سفّاكًا للدماء،

---

(١) الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، (ص٢١)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٤١٩هـ/ ٢٠٠٠م.

(٢) الذي تولىٰ مكان والده علاء الدين تكش إثر وفاته في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٩٦هـ=١٢٠٠م.

(٣) جنكيز خان تيموجين (٥٥٠-٦٢٤هـ=١١٥٥-١٢٢٦م): وُلد في «منغوليا في دولون بولداق، توجد اليوم في الأراضي الروسية»، أراد التوسع علىٰ حساب ممتلكات التتار، وكان النصر في صالح تيموجين سنة (٦٠٠هـ) نودي به خاقانًا، وعُرف باسم «جنكيز خان»؛ أي إمبراطور العالم، أو قاهر العالم، أو ملك ملوك العالم، أو القوي، حسب الترجمات المختلفة للغة المنغولية.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ (١٠/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وكانت له القدرة علىٰ تجميع الناس حوله، وبدأ في التوسُّع تدريجيًّا في المناطق المحيطة به، وسرعان ما اتَّسعت مملكته؛ حتىٰ بلغت حدودها من كوريا شرقًا إلىٰ حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غربًا، ومن سهول سيبريا شمالًا إلىٰ بحر الصين جنوبًا، أي أنها كانت تضم من دول العالم حاليًّا: (الصين ومنغوليا وفيتنام وكوريا وتايلاند وأجزاء من سيبيريا؛ وذلك إلىٰ جانب مملكة لاوس وميانمار ونيبال وبوتان!).

ويُطلق اسم التتار -وكذلك المغول- علىٰ الأقوام الذين نشئوا في شمال الصين في صحراء «جوبي»، وإن كان التتار هم أصل القبائل بهذه المنطقة، ومن التتار جاءت قبائل أخرىٰ مثل قبيلة «المغول»، وقبائل «الترك» و«السلاجقة» وغيرها، وعندما سيطر «المغول» -الذين منهم جنكيز خان- علىٰ هذه المنطقة أُطلق اسم «المغول» علىٰ هذه القبائل كلها.وكان للتتار ديانة عجيبة، هي خليط من أديان مختلفة؛ فقد جمع جنكيزخان بعض الشرائع من الإسلام والمسيحية والبوذية، وأضاف من عنده شرائع أخرىٰ، وأخرج لهم في النهاية كتابًا جعله كالدستور للتتار؛ وسمىٰ هذا الكتاب بـ«الياسك» أو «الياسة» أو «الياسق»[1].

(١) **انظر**: حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول (ص١٢٨)، بسام العسلي: المظفر قطز ومعركة عين جالوت (ص٨٦).

كانت الدولة الخوارزمية تتوسط بين مملكة التتار في الصين وبين الخلافة الإسلامية في العراق، وكانت تضم بين طياتها عدَّة أقاليم إسلامية مهمَّة؛ مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة «أورجندة (الجُرْجانِيَّة)[1]» (في تركمنستان حاليًّا)، وكان جنكيزخان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم (محمد بن خوارزم شاه) علىٰ حُسن الجوار[2] وكانوا يتبادلون التجارة بين البلدين، إلىٰ أن حدث حادث أدىٰ إلىٰ قتل بعض تجار المغول علىٰ يدي أحد ولاة الخوارزميين ولم ينج من أولئك التجار إلا واحد أتيح له الهرب من محبسه، ولما وصل إلىٰ بلاط جنكيز خان نقل إليه ما شاهده من مأساة أصحابه التجار[3]، ولم ينجح محمد بن خوارزم شاه من معالجة الأمر مما أدىٰ إلىٰ إعلان المغول الحرب عليه، وكانت غارة المغول قادمة قادمة، لكن سياسته غير الرشيدة سهلت ويسرت حدوثها، وعند أول

(١) أورجندة (كُرْكَانْج، گرگانج): هي مدينة جرجانية حاضرة أمراء خوارزم، أطلق العرب عليها جرجانية، وأطلق عليها المغول أرگينج. ياقوت الحموي: معجم البلدان (٢/ ١٢٢)، وابن شمائل القطيعي: مراصد الاطلاع علىٰ أسماء الأمكنة والبقاع (١/ ٣٢٣، ٣/ ١١٥٩).

(٢) محمود شاكر: تاريخ الإسلام (٦/ ٣٢٩).

(٣) تاريخ بخارىٰ، للنرشخي (ص١٥٩)، عودة الروح للخلافة الإسلامية، د. محمد صالح محي الدين، (ص١٨٧)، دار طويق، السعودية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

صدمة تلقاها من المغول أسرع إلىٰ إظهار الفزع والخوف بدلًا لما كان يبديه من غطرسة وتحدٍّ[1]، واستطاع التتار اجتياح الدولة الخوارزمية فخربوا البلاد وسفكوا دماء العباد وكانت الأمة في أشد حالاتها ضعفًا وخورًا، وبذلك يكون التتار قد وصلوا من الصين إلىٰ كازاخستان ثم أوزبكستان ثم التركمنستان ثم أفغانستان ثم إيران ثم أَذْرَبِيجَان ثم أرمينيا ثم جورجيا، وقد اقتربوا جدًّا من العراق كل ذلك في سنة واحدة ٦١٧هـ = ١٢٢٠م[2].

وكانت حروب التتار لها سمات خاصَّة جدًّا؛ مثل:

١- سرعة انتشار رهيبة.

٢- نظام محكم وترتيب عظيم.

٣- أعداد هائلة من البشر.

٤- تَحَمُّل ظروف قاسية.

٥- قيادة عسكرية بارعة.

٦- أنهم بلا قلب!

---

(١) تاريخ الأدب في إيران (ص٥٥٦- ٥٥٧)، ترجمه إلىٰ العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواري القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م..

(٢) ذكرنا تفاصيل ما سبق في كتابنا: أرطغرل قصة بناء وطن، ومن أراد المزيد يراجع كتاب قصة التتار للدكتور راغب السرجاني.

فكانت حروبهم حروب تخريب غير طبيعية؛ فكان من السهل جدًّا أن ترىٰ في تاريخهم أنهم دخلوا مدينة كذا أو كذا فدمَّرُوا كل المدينة وقتلوا سكانها جميعًا؛ لا يُفَرِّقُون في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين رضيع وشاب، ولا بين صغير وشيخ، ولا بين ظالم ومظلوم، ولا بين مدني ومحارب! إبادة جماعية رهيبة، وطبائع دموية لا تصل إليها أشدُّ الحيوانات شراسة.

وكما يقول الموفَّق عبد اللطيف في خبر التتار: «وكأن قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال»[1].

٧- رفض قبول الآخر، والرغبة في تطبيق مبدأ «القطب الواحد»! فليس هناك طرح للتعامل مع دول أخرىٰ محيطة؛ والغريب أنهم كانوا يتظاهرون -دائمًا- بأنهم ما جاءوا إلاَّ ليُقيموا الدين، ولينشروا العدل، وليُخَلِّصُوا البلاد من الظالمين!

٨- أنهم لا عهد لهم؛ فلا أيسر عندهم من نقض العهود وإخلاف المواثيق.. ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[التوبة:١٠]، كانت هذه صفة أَصِيلة لازمة لهم، لم يتخلَّوْا عنها في أي مرحلة من مراحل دولتهم منذ قيامها إلىٰ أن سقطت.

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص٤٠٣).

هذه هي السمات التي اتَّصف بها جيش التتار، وهي صفات تتكرَّر كثيرًا في كل جيش لم يضع في حسبانه قوانين السماء وشريعة الله ﷻ؛ فالذي يملك القوَّة ويفتقر إلىٰ الدين لا بُدَّ أن تكون هذه صورته؛ قد يتفاوتون في الجرائم والفظائع، لكنهم في النهاية مجرمون[1].

قبيلة القايي

قبيلة القايي هي القبيلة التي ينتمي إليها عثمان أصلًا، وهي القبيلة الأولىٰ من قبائل الأوغوز الأتراك[2] وتعني كلمة قايي (**Kayı**): «الشخص الذي لديه القوة والسلطة»، ورمزها طائر السنقر الذي هو أضخم أنواع الصقور.

وتتكوَّن قبائل الغزِّ أو الأوغوز (**Oguz**) من أربعةٍ وعشرين عشيرةً، تتفرَّع إلىٰ ثلاث إمارات وهي «كون، آي، ويلدز» ويطلق عليها اسم «بوزوقلار». وإمارة «كون» تتفرع إلىٰ أربعة قبائل هي: «قايي، بيات، وآلقا أولي، وقرة أولي»[3].

---

(١) السرجاني، راغب: قصة التتار، (ص١٦- ١٩)، دار أقلام ٢٠١٣.

(٢) أطلس تاريخ الدولة العثمانية (ملون)، المؤلف: سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث.

(٣) الدكتور أحمد آق كوندوز، والدكتور سعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، ٢٠٠٨م، (ص٤٨).

ويذكر الجاحظ قبائل الأتراك المشهورة عند العرب، وهم الغزُّ والقرغز والخزر والخرلوجو البجناكيّة[1].

نشأ الأتراك من جماعةٍ عِرقيّةٍ ولغويةٍ كانت تضم في العصور الأولىٰ المغول والتانغوت، حتىٰ إذا دخلوا الطَّور التاريخيَّ كانت قد تمَّت لهم خصائصُ عِرقيّةٌ مميِّزةٌ دعاها علماء الأجناس البشريّة بالخصائص الطُّورانيّة[2].

وعند ابن خلدون: أن النَّسَّابين والمفسرين اتفقوا علىٰ أن ولد نوح الذين تفرعت الأمم منهم ثلاثةٌ: سام وحام ويافث، وقد وقع ذكرهم في التوراة، وأن يافث أكبرهم وحام الأصغر وسام الأوسط، وإنَّ من ولد يافث التُّرك والصِّين والصَّقالبة ويأجوج ومأجوج، ومن ذرِّيّة سام العرب[3].

وذهب الطَّبريُّ إلىٰ: «أنَّ سام بن نوح أبو العرب، وفارس والرُّوم، وأنَّ حام أبو السُّودان، وأنَّ يافث أبو الأتراك ويأجوج ومأجوج»[4].

ويشمل موطن الأتراك الأصليِّ المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون، أو كما يذكر المؤرخ الروسي بارتولد أنَّ الإقليم

---

(١) كتابجي، زكريا: الترك في مؤلفات الجاحظ (ص٣٠).

(٢) طقوش، محمَّد سهيل، تاريخ السَّلاجقة في بلاد الشام، الطَّبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م، (ص١١).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٨-١١)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (١/ ٢٠٦).

المسمَّىٰ في المصطلح الإسلاميّ باسم بلاد ما وراء النَّهر (بُخارىٰ، سَمَرْقند، كش، نخشب، بيكند، الصَّغانيان، فرغانة، الصَّغد، الشّاش، أشروسنة، خجندة)، وهي المناطق المتحضِّرة الواقعة بين النَّهرين، أمّا تركستان فهو يقصد به بلاد التُّرك عامةً؛ أي: الأصقاع المترامية الأطراف الممتدة بين بلاد الإسلام وإمبراطورية الصين، التي كان يقطنها الرُّحَّل من الأتراك والمغول. وفي القرن الثامن الميلادي انقسمت بلاد الترك «تركستان» إلىٰ مملكتين: شرقيةٍ وغربيةٍ[1].

والترك أصحاب عُمُد وسكان فيافٍ وأرباب مواشٍ، فهم أعراب العجم، ومنهم بادية يَحِلون ويرتحلون وينتجعون الغيث ويتبعون الكلأ كما تفعل البوادي في بلاد الإسلام، وهم لا يدينون لملِك ولا يُعطون طاعة لأحد، يُغيرُ بعضهم علىٰ بعض فيَسْبُون الحُرُم والذراري وربما فارق القومُ منهم الحيّ الذي كانوا فيه وصاروا إلىٰ حي آخر ومعهم مِن حَرَم أهل ذلك الحي الذين قد صاروا إليه وأولادهم قد استعبدوهم فلا يطالبونهم بهم[2]. ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال

(١) بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلىٰ الغزو المغوليّ، الطَّبعة الأولىٰ، ١٩٨١م، (ص١٤٥).
(٢) ابن الفقيه، البلدان، (٦٤٣).

وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وصار ذلك صناعتهم وتجارتهم ولذّتهم وفخرهم وحديثهم وسَمَرهم[1]، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات.

وقبائل الغزّ ذُكرت في نقوش أورخون[2] في القرن الثالث الميلادي باسم التَّغزغز؛ أي: القبائل العشرة، وذكر اسمها الأوغوز وفي اللغة العربية الغز، وهي القبيلة الكبيرة التي وحدت جميع القبائل في إمبراطوريةٍ واحدةٍ امتدَّت من الصِّين إلىٰ البحر الأسود في القرن السادس عشر.

دخلت قبائل الغزِّ في الإسلام في القرن العاشر، وهو القسم المقيم عند مصب نهر سيرداريا، وافتتح خان[3] الغز عهده بالإسلام بأن حرَّر المدن الإسلامية التي كانت تدفع الجزية للكفار حتىٰ ذلك الوقت، وقد قوبل دخول قَومين من الترك في الإسلام بوصفه نصرًا للإسلام، وهما القراخانيون والغز، وهكذا صار للولايات

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، (ص٧٠-٧٢).

(٢) **نقوش أورخون**: من المصادر المهمة في تاريخ التُّرك، وهي تخلِّد ذكرىٰ اللِّسان التُّركي، وقد اكتشفت في النِّصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي أقدم آثارٍ تركيةٍ أنشأها الترك أنفسهم لأول مرةٍ في التاريخ بالترك. **انظر**: بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطىٰ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، (ص١٦).

(٣) كلمة «خان» تعني: (مَلِك) عند بلاد ما وراء النهر وحكام الترك التتار والهند وبلاد القوقاز وبلاد البلقار في روسيا حاليًا، وكثير من الممالك الإسلامية الشرقية.

الإسلامية الواقعة علىٰ الحدود جيران مسلمون في الشَّمال والجنوب.

الحياة الاجتماعية للقبائل التركية

كان نظام الأتراك عبارة عن أعرافٍ وتقاليدَ يعتمد علىٰ النظام العسكري، ويتكوّن من مجلس القبيلة فيه الأسياد والأمراء وأبناؤهم، ومن قادة الجيش وبعض المحاربين، يتم اختيار رئيس القبيلة بالانتخاب، وقائد رئيس المحاربين، وإعلان الحرب، ويتم اختيار طرق التجارة، ومن يقوم بالتبادل التجاري، والجميع يحترم قرار السيادة لا يمكن لأحدٍ أن يخالفه، ومن يخون القبيلة ويتآمر عليها يتم إعدامه[1].

وكان لديهم عمل جماعي، وحكم المؤسسات وليس حكم الفرد، كان حكم الدولة عند أتراك القرن السادس منذ نشأتها تحت إمرة أسرة واحدة، لا تحت إمرة شخص، فقد كان الخانات الحاكمون في غرب البلاد مستقلين من بداية أمرهم استقلالًا تامًّا، فكانوا يستقبلون السفراء ويعقدون المعاهدات دون أن يرجعوا في ذلك

(١) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ١٧) ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الانصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل - استانبول، الطبعة الأولىٰ،١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

إلىٰ الخاقان الأكبر «باشخاقان» المقيم في الشرق كما كانت تفعل القبيلة الذهبية «آلتين أوردو» في أواخر عهد المغول، ورغم أن دولة أتراك الغرب (**Tou Kiue**)، لم تكن تبلغ في أواخر أيامها درجة دولة المغول، إلا أنها كانت تتصل ثقافيًّا بالخارج، وكانت واسطةً لاتصال حضارة الشرق الأقصىٰ بحضارة غرب آسيا[1].

ويرىٰ رادلوف أن البدو لا يفكرون في الظروف العادية في أن تضمهم رابطة سياسية، بل يرىٰ كل فرد أن أصول الإدارة في العشيرة تكفل له الأمن؛ أي: أن الجماعة في هذا الدور من أدوار التطور تكون من القوة بحيث تنفذ إرادتها دون وجود سلطة تنفيذية، بل تجري أمورهم طِبقًا للعرف الذي تُولِّده علاقات العشائر بعضها ببعضٍ بغير حاجةٍ إلىٰ عقدٍ أو ميثاقٍ أو تكوين جهازٍ إداريٍّ، علىٰ أن الخانات، وهم رمز السلطة في الدولة كانوا يستطيعون في أحيان نادرة أن يُخضعوا لحكمهم شعبًا كاملًا أو عدة شعوب، وكانوا في مثل هذه الحال يقبضون علىٰ زمام الأمور بالقوة، فلا هم يُعيَّنون ولا هم ينتخبون. وإنما تجد الشعوب نفسها أمام الأمر الواقع، وأن تضطر إلىٰ قبوله بعد مقاومة طويلة[2].

---

(١) بارتولد، تاريخ الترك، (ص١٧).

(٢) بارتولد، تاريخ الترك، (ص١٧).

وكان الخان لا يستطيع إخضاع قومه الأقربين من البدو إلا بعد معاركَ داميةٍ قد تكون أحمىٰ وَطِيسًا من تلك التي يخوضها في غزو البلاد المتحضرة، وكانت غنائمُ هذه الحروب هي التي تُصلح بين الخان وقومه. ويرىٰ «بليو» أن الأتراك لديهم نظام سياسي داخلي أخذوا أصول الحكم ونظام الدولة عن الأبر **(les avares)** المذكورين في المصادر الصينية باسم «جو- جن» من نسل المغول[1].

الخلاص في الهجرة

بدأت قبيلة القايي بالنُّزوح والهجرة -كغيرها من القبائل الأخرىٰ- من الشرق نحو الغرب في زمن السلاجقة حتىٰ وصلوا إلىٰ الأناضول، هاجروا من «مَرْوَ» تركستان إلىٰ منطقة ماهان في إيران عام (١٠٤٠م)، ثم هاجروا من تلك المنطقة نتيجة استيلاء المغول عليها، وجاءوا إلىٰ خِلاط [2] وكانت في طرف بحيرة وان[3] تقع

(١) المرجع نفسه.

(٢) في ولاية تبليس في تركيا حاليًّا.

(٣) بحيرة وان أو أرجيش علىٰ ما سماها به المصنفون الأولون، أشهر بحيرات أرمينية، وكان علىٰ شطآنها مدينة خلاط وأرجيش ووان ووسطان، وقد وصفها الإصطخري: وطولها عشرون فرسخًا [لسترنج، كي، بلدان الخلافة الشرقية (ص٢١٨)، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م].

علىٰ الساحل الشمالي الغربي منها[1] من أفضل مدن أرمينية، وصفها المقدسي ونقلها عنه المستوفي بأنها مدينة في سهلة تحف بها البساتين وعليها حصن، والجامع في الأسواق، والبرد فيها قارس في الشتاء، وهي آهلة جدًّا، والنهر يَخرقها ويصل جانبيها جسر، ونوَّه المستوفي بالبساتين المجاورة لها، ويطل علىٰ الجبل العظيم المسمىٰ كوة سيبان، وأنه يُرىٰ من بعد خمسين فرسخًا، ولا تفارق الثلوج قمته[2]. وكان ذلك في عام (١١٧١م)[3].

وتشير بعض الدِّراسات إلىٰ أنَّ السَّبب الرَّئيس للهجرة هو سببٌ اقتصاديٌّ، بسبب القحط الكبير الذي كان في مناطق الأتراك مع زيادة الأعداد السكانية، وقلة الأراضي الزراعية، حتىٰ وصلت الحال بهم إلىٰ عدم القدرة علىٰ إطعام الشعب المتزايد، مما أدىٰ إلىٰ الهجرات إلىٰ مناطقَ فيها مُناخٌ جيدٌ وثروةٌ طبيعيةٌ. وإلىٰ جانب المشكلة الاقتصادية المشكلة السياسية والصراعات التي تعرضوا لها من المغول! كان ذلك دافعًا للأتراك إلىٰ البحث عن وطن آمن بعيدًا عن هجمات المغول.

---

(١) المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، س. موستراس، ترجمة وتعليق: عصام الشحادات، دار ابن حزم، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م، (ص٣٢).

(٢) لسترنج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، (ص٢١٧).

(٣) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٨٣).

فقد كانت قبيلة القايي تستوطن في بلاد ماهان قرب بلخ، لما ظهر جنكيز خان، وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وتفرق أهلها.

وكانت القبيلة في ذلك الوقت تحت رئاسة والد أرطغرل وجد عثمان (علىٰ خلاف في اسمه سنذكره)، وهو يحمل القيم والأفكار التي ورثها عن أجداده، والتي سارت عليها قبائل التركمان. وقام بتربية أولاده علىٰ هذه القيم مثل: الشجاعة وحب الدين ونصرة المظلوم. وفي هذه الفترة كانوا في خِلاط يبحثون عن أرض آمنة يقيمون عليها بعيدًا عن هجمات المغول الوحشية التي اجتاحت تلك المناطق[1]. فقرر ترك البلاد مع مَن تركها من الملوك وغيرها، وقصد بلاد الروم، وكان قد سمع بدولة السلاجقة وعِظَم شوكتهم، وكثرة غزوهم إلىٰ الكفار، وتبعه في ذلك خلق كثير. ثم قصدوا صَوْبَ حَلَبَ (سوريا) من ناحية البستان أو الأبلستين، والمقصود أنهم اتجهوا نحو الجنوب الغربي، وبسبب الخلافات والصراعات داخل الدول الإسلامية وتغلغل الصليبيين في أجهزة الدولة، عاد مع قبيلته[2].

(١) القرماني، أحمد، تاريخ سلاطين آل عثمان، دار البصائر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٥م، (ص٩).
(١) السابق (ص١٠).

وفي أثناء عودتهم من ماردين التي تبعد ٢٠٠ كيلو متر من خِلاط- وقيل من حلب- ومع عبورهم نهر الفرات قرب قلعة جَعْبَر[١] غرِق كندوز آلب بحصانه، وتوفي تقريبًا في أواخر عام ١٢٢٩م= ٦٢٦هـ. أي أن هذا التنقل استمر نحو ٩ سنوات يرتحلون من مكان إلىٰ مكان ومن بلد إلىٰ بلد، يمكثون فيها سنوات فإذا توغل التتار في أرضهم ارتحلوا إلىٰ غيرها فيصنعون ذلك الصنيع.

الخلاف في تحديد والد أرطغرل:

هناك رأيان حول تحديد والد أرطغرل:

الأول: سليمان شاه: وذهب إلىٰ هذا الرأي المؤرخ أحمد جودت باشا وعدد من المؤرخين المتأخرين، وكذلك في بعض شجرة الأنساب، وهو الأشهر. ويُعَدُّ اسم سليمان شاه رمزًا للأتراك، لكونه مؤسسَ الأناضول، وهو أوَّل سلطانٍ لها.

الثاني: كوندوز ألب: وذهب إليه كتاب دستور نامة للمؤرخ أنوري، وتاريخ محمد توفيق باشا. ورأيٌ آخرُ: أن كوندوز ألب هو والد سليمان شاه وجَدُّ أرطغرل[٢].

---

(١) قلعة علىٰ نهر الفرات قرب صفّين، وكانت قديما تسمّىٰ دوسر فملكها رجل من بني قشير أعمىٰ يقال له جعبر بن مالك وكان يخيف السبيل ويلتجئ إليها.
انظر: معجم البلدان (٢/ ١٤١- ١٤٢).

(٢) الدولة العثمانية المجهولة، (ص٤٩).

ويذهب بعض المؤرخين المتأخرين إلىٰ ترجيح نسب «أرطغرل» إلىٰ «كندوز ألب» حيث يرىٰ الكثير من المؤرخين أن الروايات التي تقول بأن «كندوز ألب» هو نفسه «سليمان شاه» هي روايات ضعيفة لا صحة لها، ويرجّح هؤلاء المؤرخون أن «سليمان شاه» هو مجرد ذكرىٰ باقية من اسم فاتح الأناضول[1].

ويؤكد هذا الرأي اكتشاف عملة معدنية مسكوكة من عصر عثمان بن أرطغرل (توفي ١٣٢٤م)، نُقش عليها اسم أرطغرل واسم والده كندوز آلب (بالتركية: **Gündüz Alp**؛ تُلفظ: كوندوز آلب). والعملة موجودة بمتحف الآثار بإسطنبول (بالتركية: **Arkeoloji Müzesi**) مكتوب علىٰ وجه العملة «ضرب - عثمان بن - ارطغرل - ايده الله» وعلىٰ ظهرها مكتوب «ضرب - عثمان بن - ارطغرل بن - كـ..دز الپ».

فبات الأصدق تاريخيًّا أن كندوز آلب هو والد أرطغرل؛ لأن مصادر تاريخية عثمانية مهمة مثل: «دستور نامة» للمؤرخ «أنوري» و«تاريخ محمد توفيق باشا» تقول بهذا[2] ولوجود هذه العملة.

---

(١) http://www.turkpress.co/node/5995

(٢) الدولة العثمانية المجهولة (ص٤٩).

عملة معدنية مسكوكة من عصر عثمان بن أرطغرل، نُقش عليها اسم أرطغرل واسم والده كندز آلب.

الكتابة على عملة عثمان الأول

الوجه الأمامي	الوجه الخلفي
ضرب	ضرب
عثمان بن	عثمان بن
ارطغرل بن	ارطغرل
كـ..دز الپ	ايده الله

وهناك نسب مذكور هو: أرطغرل بن كندوز آلب بن قايا آلب بن كوك آلب بن صارقوق آلب بن قايي آلب الذي اكتسبت القبيلة منه اسمها[1].

***

(١) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ١٧).

الباب الثاني

أرطغرل يحمل الراية

«من المؤكد أن عثمان لم يكن ابن أحد السلاطين. ولم يقيض له أن يحكم سوىٰ ملكية صغيرة، ولكن هذه الملكية كانت تكبر وتتسع مع مرور السنوات... وهذا يشير بوضوح إلىٰ عظمة الشخص الذي كان يقف وراء تأسيسها وبنائها».

إدوارد جِيبُون
مؤرخ إنجليزي

بطاقة أرطغرل

أرطُغرُل (بالتركية: **Ertuğrul**) تعني: «ار **er**»، أي: رجل أو جندي أو بطل، و«طغرل **tuğrul**» تعني: طائر العقاب وهو معروف بأنه طير جارح ضخم قوي البنية، وقد يكون اسم أرطغرل معناه: الرجل العقاب أو الجندي العقاب أو الطير الجارح البطل[1]، والمعلوم أن العقاب لا يأكل إلا من صيد مخالبه فلعل اسمه كان تيمنًا بقوته علىٰ أعدائه.

لم يكن أرطغرل شخصية ذات شهرة في التاريخ، فإنه لم يَحظَ بأكثر من بضعة أسطر تمهد الطريق إلىٰ أخبار الدولة العثمانية أغلبها أشبه بالحكايات الشعبية لا التوثيق التاريخي، ولا أدل علىٰ ذلك من الخلاف في تعيين والد أرطغرل والتعريف باسمه، وقد سبق ذكر الخلاف في ذلك، فلم يكن أرطغرل مشهورًا في زمانه ليعتني بسيرته المؤرخون، ولولا أن الدولة العثمانية صارت دولة عظيمة، وسادت ذريته العالم، ربما لم يكن له ذكرٌ من الأساس وما حظي بأي اهتمامٍ.

وحسب الرواية المشهورة فإن والدة أرطغرل هي هيماه آنا (بالتركية:

(1) V. L. Ménage: Artikel Ertoghrul. In: Encyclopaedia of Islam.

Hayma Ana)[1]، أو هيماه خاتون (بالتركية: **Hayme Hatun**) وكان له من الإخوة: «غندودو- سنغور تكين- دوندار».

مولده:

وُلد أرطغرل عام (١١٩١م) تقريبًا في مدينة خلاط ونشأ في كنف والده ووالدته وهو ثالث أبنائهم، وتميَّز أرطغرل بصفات قيادية تختلف عن إخوانه، مثل: الإصرار والشجاعة والإقدام، وهي التي ميزته عن إخوانه[2].

كان هدف أرطغرل كبيرًا، له طموح ورؤية علىٰ عكس أفكار إخوانه، أخوه الأكبر غندودو كان هدفه سيادة القبيلة، وسنغور تكين كان هدفه الدولة، بينما أرطغرل كان هدفه الأمة وبناء أفرادها.

الزواج:

تزوج أرطغرل من السلطانة حليمة عام (١٢٢٧م)، وأقرب الروايات[3] أن حليمة والدها هو السلطان غياث الدين مسعود بن كيكاوس السلجوقي[4].

---

(١) الدولة العثمانية المجهولة (ص٤٩).

(٢) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٨٦).

(3) Claude, Pre - Ottoman Turkey,P. 295.

(٤) غياث الدين مسعود بن كيكاوس حمل لقب سلطان سلاجقة الروم خلال فترتين زمنيتين=

وكان للسلطانة حليمة شأن وتأثير كبير في تاريخ قبيلة القايي، وتأسيس الدولة العثمانية، ودعم زوجها الغازي أرطغرل عندما ساد القبيلة، وهي التي ترعرعت ونشأت في قصور السلاجقة من السلالة السلجوقية، ثم انتقلت إلىٰ خيمة السيادة في قبيلة القايي بجانب الأم هيماه، وبصحبة زوجها أرطغرل ووالده.

ونساء الأتراك بعامة كان لهنّ دور كبير في الأحداث السياسية، في ذلك العصر وساهمن في بناء الدول.

وكانت تُدعىٰ السلطانة الوالدة سيدة الحريم السلطاني بلا منازع، لها إجلال وتقدير، وكلمتها نافذة علىٰ حريم القصر جميعهن، وقد خاطبها السلاجقة بالوالدة الجليلة، والكريمة، والكبيرة، والمحسنة، والصالحة، وخديجة الوقت، وسيدة الخواتين.

وشاركت نساء الأتراك سلاطين الدولة في صنع القرارات السياسية داخل السلطنة وعلاقتها مع الدول الأخرىٰ، واستطاعت بحِنْكَتِها إيجاد نوع من التوازن في العقبات والمصاعب وفقًا للمصالح وما

=

الفترة الأولىٰ من ١٢٨٤م إلىٰ ١٢٩٦م والفترة الثانية من ١٣٠٢م إلىٰ ١٣٠٨م. وخضع إلىٰ سلطة الخان المغولي، كان الابن الأكبر لكيكاوس الثاني. وأمضىٰ جزءًا من حياته منفيًّا في شبه جزيرة القرم وعاش جزءًا من حياته في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية . وأول ظهور له في الأناضول كان سنة ١٢٨٠م مطالبًا بعرش السلطنة. وفي سنة ١٢٨٤م أعدم الخان الجديد أحمد تكودار السلطان كيخسرو الثالث ونصب مكانه غياث الدين مسعود.

تُمْليه الظروف، وبرز دورها السياسي علىٰ الصعيد الدولي من خلال المصاهرات السياسية التي عقدها السلاجقة مع الأسر الحاكمة، فقامت بدور الوسيط، كما ظهر تأثيرها علىٰ الصعيد الداخلي للسلطنة من خلال تدخلها في العرش ومنصب ولاية العهد.

أرطغرل يخلف والده

أراد أرطغرل -بعد وفاة والده- أن يُكمل مسيرته في البحث عن وطن آمن، وهو يحمل روح المخاطرة والمغامرة من أجل مبادئه وأفكاره، بينما أراد إخوانه العودة إلىٰ موطنهم الأصلي، يبحثون عن الأمن وعدم إراقة كثير من الدماء. فانقسمت القبيلة في لحظة حزينة حاسمة في مفترق طرق بين الوصول للهدف والاستسلام، انشقت القبيلة، وافترق الإخوان من أجل المبادئ والأفكار التي يؤمن بها أرطغرل.

فنصفهم عاد مع غندودو وسنغور تكين إلىٰ موطنهم الأصلي، وقسم أكمل المسير مع أرطغرل ورفاقه ووالدته هيماه وأخيه دوندار يريدون الذهاب إلىٰ أراضي بيزنطة في الأناضول[1].

(١) القرماني، أحمد، تاريخ سلاطين آل عثمان، (ص١٢).

كان أرطغرل محاربًا شجاعًا لا يهاب الموت، وكان معه كوكبة إيمانية من المحاربين هم رفقاء دربه في الصيد والغزو منذ مراحل الشباب الأولىٰ، أصدقاء دربه الأوفياء ساندوه واستمروا معه في تحقيق مشروعه نحو بناء الوطن منذ نشأته في خلاط، وهم تورغوت ألب والغازي عبد الرحمن وأقجاقوجا، وكونور ألب وحسن ألب، وسامساجا وشوصالتوق ألب، وأيكود ألب، واَق تيمور، وقرة مرسل، وقرة تكين، وأيكود ألب، والشيخ محمود، بعضهم استمر إلىٰ عهد عثمان غازي، وشارك في الفتوحات مع أورخان ابنه[1].

البحث عن وطن

إن طبيعة الإنسان وفطرته تُجبره علىٰ أن يعيش داخل مجتمع، وأن يبحث له عن انتماء داخل جماعة يستطيع أن يشاركها الأفكار والمعتقدات، فالجماعة بالنسبة للفرد هي صمام الأمان، المغزىٰ من الجماعة -بغض النظر عن أفكارها وأيديولوجياتها- يكمُن في رُوح التضحية لأجل المصلحة العامة التي ستعود علىٰ الفرد بالمنفعة، وأن يوجد تبادل في العطاء بين الطرفين، فحينما يكون

(١) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، دار النفائس، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٣م، (ص١١٥).

للفرد قيمة يصبح طرفًا قادرًا علىٰ الإبداع والعمل والتضحية، من أجل مصلحة العامة، التي تعود بنتائج إيجابية.

إن أرطغرل يسير في الطريق نفسها التي سار فيها المصلحون، لا يبغي مُلكًا، ولا يريد دولة، إنما يريد الوطن، الوطن الذي يتمكن فيه من عبادة الله، والعيش في سلام وأمان، أن نجد وطنًا يحتوينا ويأوينا -نختلف فيه ونتفق، وتظل إنسانيتنا تجمعنا فيه- خير من وطنٍ نعيش فيه تعساء، بائسين، أشقياء، يتغذىٰ الجبّارون فيه من تعاستنا.

كان لأرطغرل وطن، لكنَّ المغول اضطروه إلىٰ تركه، فأي أرض تُقِلّه، ومَن يحميه وقومه؟!

إنني أستعيد الآن مع أرطغرل ذكريات قديمة، قديمة من عهد النبي ﷺ، هجرة الحبشة التي هاجرها المؤمنون المستضعفون، واضطروا إلىٰ اللجوء في أحضان دولة نصرانية (الحبشة)، والعيش تحت راية ملكها النجاشي العادل، ليس هذا الوطن الذي تربَّوا فيه فقسا عليهم وقهرهم ورفضهم اجتماعيًّا وسياسيًّا لأجل معتقدهم، الوطن الحقيقي هو الذي سمح لهم بممارسة شعائرهم، في أمان ورعاية، حتىٰ إنني لأستشعر من هؤلاء المهاجرين الأوائل هذا الأُنس وهذا الانتماء في حديث أم سلمة رضي الله عنها، وهي تُحدِّث عن هذه التجربة، فتقول: «وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ.. فَوَاللهِ إِنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ. (مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ)، فَوَاللهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا

قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ».. هكذا كانت فرحتهم، ثم كانت أحزانهم خوفًا من أن تفارقهم نعمة الأمن.. بل يحملهم ذلك علىٰ أن دَعَوا الله أن ينصر النجاشي وهو علىٰ غير دينهم، قالت: «وَدَعَوْنَا اللهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَىٰ عَدُوِّهِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، وَاسْتَوْسَقَ[1] عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ، حَتَّىٰ قَدِمْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ»[2].

ثم تكون تجربة أخرىٰ للنبي ﷺ نفسه، فيخرج إلىٰ الطائف يَعْرِض نفسه علىٰ أهلها، ويكون الصد والإعراض والاستهزاء[3]، وتجربة أخرىٰ وهو يعرض نفسه علىٰ القبائل في مواسم الحج، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ

(١) اسْتَوْسَقَ عليه أَمْرُ الحَبَشة؛ أي: اجتمعوا علىٰ طاعته واستقرَّ الملك فيه. ابن منظور: لسان العرب، (١٠/ ٣٧٨). الوسق: ضَمُّكَ الشيء إلىٰ الشيء بعضهما إلىٰ بعض. والاتِّساق: الانضمام والاستواء؛ كاتِّساقِ القمر إذا تم وامتلأ فاستوىٰ. واستَوْسَقَت الإبل: اجتمعت وانضمت. الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين (٥/ ١٩١).

(٢) رواه أحمد (١٧٤٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٣) **انظر**: ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٤١٩)، والطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٣٤٤-٣٤٦)، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣/ ١٣، ١٤)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ (١/ ٦٨٥)، وابن سيد الناس: عيون الأثر (١/ ١٥٥)، وابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ١٦٧)، والبيهقي في الدلائل: (٢/ ٤١٥-٤١٧).

النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ[1] فَقَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ فَإِنَّ قريشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»[2].

ويقول كذلك: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْمَوْقِفِ فَيَقُولُ: «**هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ فَإِنَّ قريشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي** ﷻ؟» فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ: «**مِمَّنْ أَنْتَ؟**» فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَمْدَانَ. قَالَ: «**فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ. ثمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَحْقِرَهُ قَوْمُهُ فَأَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ ثمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ. قَالَ: «**نَعَمْ**». فَانْطَلَقَ وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ[3].

كان هذا مراد النبي ﷺ... **الوطن.. «يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ»!!**

لماذا؟

«أُبَلِّغ كَلَامَ رَبِّي»!!

---

(١) الموقف: أي الموسم. **انظر**: المباركفوري: تحفة الأحوذي (٨/ ١٩٥)، وفي رواية النسائي وابن ماجه: «يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ النَّاسِ فِي الْمَوْسِمِ». والمقصود موسم الحج.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وقال: حديث غريب صحيح. والنسائي (٧٧٢٧)، وابن ماجه (٢٠١)، والدارمي (٣٣٥٤)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٧).

(٣) رواه أحمد (١٥٢٢٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط البخاري رجاله ثقات. والحاكم (٤٢٢٠)، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله ثقات. [مجمع الزوائد ٦/ ٣٥].

إذا تهيَّأ الوطن تهيأت الدعوة، وتهيأت التربية، وتهيأ الإصلاح، وصلَحت الأرض لاستقبال البذرة.. فأَتَىٰ ﷺ كِنْدَةَ، وأَتَىٰ كَلْبًا، وأَتَىٰ بَنِي حَنِيفَةَ، وأَتَىٰ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وأَتَىٰ بني شيبان[1]. منهم مَن تحمَّس وفكر، ومن خاف وأبىٰ، ومن عاند واستكبر، ومن وضَع الشروط وساوم علىٰ المُلك، وفي الأخير كان الأنصار هم أصحاب تلك المفازة، منحوه الوطن، فكانت الدولة!

نعم، إنني أرىٰ أن الوطن أهم من الدولة، أن تكون لك أرض آمنة مستوطنًا فيها تعبد ربك أنت ومن معك، أفضل من تلك الدولة التي يتصارع علىٰ زعامتها الآلاف ويكيد بعضهم البعض من أجلها، أن تعيش في وطن يحكم بالعدل، خير أن تكون لك دولة ظالمة، أن تستوطن في رحمة وأمان، خير من دولة جبارة تعيش فيها خائفًا.. وطنُكَ قارِبُكَ الذي يَمْخُرُ عُبَابَ الموج لِيَصِلَ بكَ إلىٰ بَرّ الأمان حيث لا خُنوع ولا خُضوع ولا هوان، والحقيقة أن التاريخ يُرينا أن هذا الوطن إن استقر ستخرج منه الدولة سريعًا

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٤٢٤، ٤٢٥)، والطبري: تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٣٤٩، ٣٥٠)، وابن حبان: السيرة النبوية (١/ ٩٣-١٠٥)، وأبو نعيم: دلائل النبوة (ص٢٨٣)، والبيهقي: دلائل النبوة (٢/ ٤١٨، ٤٢٢- ٤٢٧)، وابن الجوزي: المنتظم (٣/ ١٦،٢١)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ (١/ ٦٨٧)، والذهبي: تاريخ الإسلام (١/ ٢٨٦)، وابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ١٧٠)، والسيرة النبوية (٢/ ١٥٨،١٥٧).

وتنتشر، تحقق ذلك في المدينة فكانت دولة النبي ﷺ التي توسعت في عهد الخلفاء وانتشرت.. وسيحدث ذلك في وطن أرطغرل وستكون الدولة لأبنائه وحَفَدته وستنتشر أيضًا.. تلك سنة الله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

كانت الهجرة هي السبيل الوحيدة ليعيش الأولون في أمان، هذا الأمان لو وجدوه في بلدهم لما تركوه، هذا السبيل أرشد إليه الله كل من ابتُلي بذلك، كل من اضطهد وقهر وذل، وأجبر علىٰ النكوس، ولم يعد يقدر علىٰ عبادة الله وتربية أهله علىٰ الإيمان، لم يعد ذلك الوطن وطنه بعد، وطنه أي مكانٍ يَحُطّ فيه رحاله ويسمع فيه تكبيرات الجوامع، أي أرضٍ يرتحل إليها ويتحدث مع الناس فيها بأمان، أي بقعةٍ يصلها ليجد الناس فيها يؤمنون بنفس القضايا التي يؤمن بها ويشارك بعضهم البعض في الدين والثقافة والتاريخ، هذا هو الوطن، ليست بقعة جغرافية واحدة، وطن أكبر من كل الأوطان.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء: ٩٧].

الأناضول المنشود

الأناضول أو الأناطول: معناها الشرق وتُطلق الآن علىٰ الأراضي الواقعة شرق البحر المتوسِّط، وهي جزءٌ من الجمهوريَّة التركيَّة[1]. أي الجزء الآسيوي من تركيا[2].

والأناضول شبه جزيرة جبليَّة بين البحر الأسود في الشمال وبحر إيجة في الغرب والبحر المتوسِّط والعراق وسوريا في الجنوب، وأرمينيا وجورجيا وإيران في جهة الشرق[3].

الأناضول إلىٰ حد ما جافة وأكثر وعورة إذا ما قورنت بمنطقة مرمرة، وبذلك فإن تكلفة رأس المال اللازم للبنية التحتية والزراعة كبيرة جدًّا، وعادة ما تكون في مناطق شبه الجزيرة ثقافة بحرية، فيما تمتاز شواطئها بالسلاسة مسببة بذلك تحديدًا للموانئ الجيدة عليها، بالإضافة إلىٰ ارتفاع الجبال الشاهق بمحاذاة الساحل علىٰ العكس من منطقة مرمرة، وهناك أيضًا بعض المناطق النائية التي تحتاج إلىٰ تطوير معين حتىٰ تستفيد من

(١) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفىٰ - أحمد الزيَّات - حامد عبد القادر - محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة (١/ ٢٨).

(٢) الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصريَّة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩، (١/ ٤٥١).

(٣) الموسوعة العربية الميسرة، (١/ ٣٠٨-٤٥١)، والموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، (٢/ ١٩٣).

إمكانية الوصول البحري، وهناك استثناءات ملحوظة، مثل الجيوب الساحلية المسطحة في مناطق أضنة وأنطاليا، لكنها محدودة ولا يمكن أن تشكل هوية كاملة للساحل، كما أن وديان الأناضول مرتفعة كذلك، وهي أكثر حدة وأضيق من تلك التي في الطرف الغربي لشبه الجزيرة، هذه العوامل تشجع علىٰ تنمية واستقلال ثقافات محلية خاصة وهو ما يُعقِّد مسألة السيطرة المركزية علىٰ تلك المناطق، وبناءً علىٰ ما سبق فإن الأناضول قليلة السكان وضيقة وقليلة الأموال وكذلك معزولة إلىٰ حد ما إذا ما قورنت بمنطقة بحر مرمرة الغنية برؤوس الأموال والمنفتحة علىٰ الخارج، ولهذه الأسباب لم يعط الأتراك مسألة السيطرة علىٰ الأناضول كثيرًا من الأهمية في الأوقات المبكرة من نمو دولتهم، فتكلفة الأمر تفوق الفوائد المجنية منه، لكنهم في الوقت نفسه كانوا بحاجة للتأكد من أن سكان الأناضول لن يقوموا بأي مداهمة لمناطقهم الأساسية والمحورية، بالإضافة إلىٰ ضمان عدم استخدام أي إمبراطورية أخرىٰ للجسر البري الخاص بالأناضول للوصول إلىٰ بحر مرمرة وبحر إيجه، والحل كان بخلق حاجز مانع للمناطق وراء الطرف الشرقي من الوديان التي تصب في بحر مرمرة وبحر إيجه، وفي هذه الحالة لا يعد الموقع علىٰ وجه التحديد مهمًّا للغاية، لكن ووِفق معظم المقاييس فإنه من الأفضل

أن يكون كتلة قريبة من الطرف الغربي من شبه الجزيرة، أي أكثر من ثلث الطريق أسفل طول شبه الجزيرة، لأنه كلما تحرك أحد في مناطق شرقي الأناضول يوغل في المناطق المرتفعة والجافة والأكثر وُعورة من غيرها، وتُعد الفوائد الإستراتيجية لهذه الكتلة الحامية غير محدودة أبدًا، وبشكل عام فمن الصعب السيطرة علىٰ الأناضول وتطويره، ومن الصعب أيضًا شن الغزوات من خلاله، وبشكل عام فتساهم الكتلة الحامية في الأناضول بحماية تركيا من أي هجوم أو غزو آسيوي، وبالتالي يمكن استخدام الأناضول في هذه الحال منطقةً عازلة حقيقية تسمح للأتراك بالتركيز علىٰ المراعي الغنية في أوروبا[1].

لقد استطاع قتلمش بن أرسلان السلجوقي وابنه سليمان ابن قتلمش أن يؤسّسا دولة للسلاجقة في الأناضول استمرت حوالي ٢٣٠ سنة، عُرفَت باسم سلاجقة الروم، واتخذت في البداية «إزنيك» عاصمة لها، ثم تحولت العاصمة إلىٰ قونية، وهذه السيطرة السلجوقية علىٰ معظم الأناضول أدت إلىٰ هجرات تركية متتالية، وخاصة إلىٰ شرق الأناضول ووسطها، وأسس السلاجقة

(١) هيثم فيضي: جيوبوليتيك تركيا.. البحث عن المزيد، مركز إدراك للدراسات والاستشارات، مايو ٢٠١٦م، (ص٧، ٨).

قُرًى خاصة بهم عاش فيها المسلمون جنبًا إلىٰ جنب مع السكان الأصليين للمنطقة، وتدريجيًّا تحول عدد كبير من أهل البلاد إلىٰ الإسلام، وبذلك تغيرت التركيبة السكانية تغيرًا كبيرًا أضفىٰ شكلًا جديدًا علىٰ الأناضول.

أصبح سلاجقة الروم الممثلين الوحيدين للسلاجقة بعد موت آخر سلاطنة السلاجقة طغرل الثالث في سنة (١١٩٤م). نجح كيخسرو الأول في استعادة قونية من أيدي الصليبيين سنة (١٢٠٥م) وسيطر علىٰ «أنطاليا» في سنة (١٢٠٧م)[١].

تزامن مع تأسيس دولة سلاجقة الروم حركة الأرمن من مملكة أرمينيا الكبرىٰ في اتجاه الجنوب الغربي إلىٰ منطقة «قيليقية» في الأناضول علىٰ ساحل البحر الأبيض المتوسط، وذلك في عام ١٠٨٠م، ليؤسسوا بعد ذلك مملكة أرمينيا الصغرىٰ، والتي ظلَّت مستقلة قرابة الثلاثة قرون، متخذة من مدينة «سيس» عاصمة لها، ومغيّرة من التركيبة السكانية للأناضول بطريقة أخرىٰ، وليصبح للأرمن وجود في تاريخ الصراع مع الدولة البيزنطية أحيانًا، ومع مسلمي الشام أحيانًا أخرىٰ، ومع مسلمي الأناضول أحيانًا ثالثة، آخذين في الحُسبان أنَّ الكنيسة الأرمينية منفصلة عن الكنيسة

(١) تاريخ السلاجقة الروم، محمد سهيل طقوش،(ص٣٠)، دار النفائس، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م.

الأرثوذكسية التي يتبعها البيزنطيون، وهذا ولَّد صراعًا بين الطرفين، وإن كانوا جميعًا تحت مِظلة النصرانية.

أدىٰ وجود الأتراك والأرمن بشكل كبير في الأناضول إلىٰ اتجاه كثير من اليونانيين إلىٰ غرب الأناضول ليعيشوا في المناطق الخصبة القريبة من ساحل بحر إيجه، والتي ما زالت تحت السيطرة البيزنطية، وبذلك صار الوسط الأناضولي تركيًّا مسلمًا، بينما الجنوب المطل علىٰ الساحل أرمينيّ، ثم هناك الشمال الغربي أرثوذكسيّ بيزنطيّ، وإن كان هذا لم يمنع تداخل الأنواع الثلاثة من السكان في مناطق كثيرة من الأناضول ولكن بشكل محدود.

وصلت قوة سلاجقة الروم وسُلطتهم إلىٰ ذروتها في عهد كيكاوس الأول وكَيْقُبَاذ الأول. وجلس عز الدين كيكاوس علىٰ العرش التركي بعد والده غياث الدين كيخسرو الأول، فقبض علىٰ أخيه علاء الدين، واعتقله في «قلعة مسارا» التي بأسفل دير مارا هرون بالجبل المبارك قرب «ملاطية». فقد نجح من احتلال «سينوب» علىٰ البحر الأسود سنة (١٢٠٧م)، كما أخضع مملكة أرمينيا الصغرىٰ، لكنه اضطر في سنة (١٢١٨م) لتسليمها للأيوبيين. في كانون الثاني (يناير) ١٢٢٠م ذي القعدة (٦١٦هـ) اشتد مرض داء السُّلّ علىٰ السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج

أرسلان فمات. بعث الأقطاب وأطلقوا أخاه علاء الدين من معتقله في قلعة مسارا بالجبل المبارك واستلم الحكم. الذي كان يُلقب «علاء الدين الكبير، علاء الدين المعطي» وهو في تركيا السلجوقية، بمنزلة السلطان سليمان القانوني في تركيا العثمانية.

امتاز عهده بالرفاهية وزيادة العمران وتطور التجارة وتنمية الصناعة وتقدم الزراعة استطاع أن يجعل من تركيا أغنىٰ بلدٍ في العالم تلك الفترة. وقد كان ذلك بسبب سياسته العسكرية الراجحة ودبلوماسيته المتفوقة. قام بالسيطرة علىٰ أراضٍ علىٰ طول البحر الأبيض المتوسط طوال أربعِ سنواتٍ بين (١٢٢١-١٢٢٥م). كما أرسل في سنة (١٢٢٠م) حملةً عبرت البحر الأسود ليهزم المنكوجكيون[١]، ويشكل تهديدًا علىٰ الأرتقيون. أرسل أسطولًا إلىٰ قرم، وأخضعها للسيادة التركية، وارتبطت الملكية الأرمينية في كليكيا بقونية بروابط أكثر متانة. أخذ من البيزنطيين جميع سواحل البحر الأسود، كما أخضع إمبراطورية طرابزون للسيادة التركية، وارتبطت بها روابط متينة[٢].

---

(١) المنكوجكيون أو آل منكوجك، منگوجوق: سلالة تركمانية حكمت في شمالي الأناضول (إرزينجان، ديفريجي، وكِماخ)، مابين سنوات ١١١٨-١٢٥٠ م تقريبًا. انظر:
http://www.hukam.net/family.php?fam=858

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، الطبعة الرابعة، (ص٢٤٩).

ظل الوضع علىٰ هذه الصورة في خلال القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) عندما حدث تطور عالمي جديد أدىٰ إلىٰ بعض التغييرات في تاريخ الأناضول، ومن ثم في تركيبته السكانية وموازينه السياسية، وهذا التطور العالمي كان ظهور دولة المغول في شرق آسيا، والتي سرعان ما بدأت زحفها الرهيب في اتجاه الغرب.

كان لظهور المغول أثر كبير في إزاحة عدد كبير من أتراك آسيا الذين يعيشون في منطقة التركستان وأفغانستان، إلىٰ الغرب، حيث هرب هؤلاء الفلاحون إلىٰ أبعد المناطق غربًا ابتعادًا عن مجرمِي المغول، وكان من هذه المناطق الأناضول، فأدىٰ هذا إلىٰ زيادة تتريك الأناضول وأسلمته حيث كان معظم هؤلاء المهجَّرين من الأتراك المسلمين.

وفي خلال القرن الثالث عشر الميلادي عمت الاضطرابات والفوضىٰ كلًّا من السلطنة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية، فبيزنطة ضعفت قوتها بعد الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م) عندما استولوا علىٰ القسطنطينية، ونهبوها وأضعفوا قوة الدولة البيزنطية، وكذلك انتشار مرض الطاعون إلىٰ حصد سكانها في أواخر أربعينيات القرن الثالث عشر. وفي نفس الوقت فشِلت

الدولة السلجوقية في فرض النظام علىٰ القبائل التركمانية بسبب ما قام به المغول من سلب ونهب؛ إذ كان المغول قد بدءوا في شن غارات بربرية قاسية وخاطفة، وأعدُّوا الحملات وجيَّشوا الجيوش، موجهينها إلىٰ آسيا الصغرىٰ مما أدىٰ إلىٰ إضعاف قوة السلاجقة، مما مهّد لإزالتها تمامًا.

وفي هذه الأثناء تدفق البدو الرُّحَّل والجند المدربون الذين كانوا شغوفين بخوض المعارك لتحقيق الكسب المادي ولفرض العقيدة الصحيحة علىٰ العالم المسيحي. كما كان الاضطراب الذي ساد في قلب العالم الإسلامي، الذي يمكن تشبيهه بمذراة هائلة تبعثر كل شيء في الهواء، يمتص المقاتلين من مناطق السهوب الاستبس، ويجلبهم إلىٰ قلب العالم الإسلامي ويدفع الفائض منهم عبر الحدود.

نزحت القبائل التركمانية إلىٰ الأناضول عند حدود بيزنطية بعيدًا عن هجمات المغول، والتي كانت تترأسها عائلاتٌ من قبائل تركمانيةٍ من قبائل الأغوز في الفترة التي كانت فيها دولة السلاجقة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكانت ممتدةً علىٰ الساحل، وفي نزاعٍ دائمٍ فيما بينها لتقسيم الأراضي المجاورة أو الأراضي البيزنطية، بعد أن استقروا بالأناضول فاتحين انقسموا إلىٰ سكانٍ في المدن، وعملوا بالتجارة والصناعة والحِرَف المختلفة، وأطلق عليهم اسم

التركمان، وسكانٍ عملوا علىٰ تربية الحيوانات، وسكنوا الخيام وتميزوا بصناعة السيوف وأسلحتهم والمعدات الحربية التي يستخدمونها في المعارك[1].

وقد استفاد التركمان في حقبة الإمبراطورية السلجوقية، وما أعقب تفككها من ظهور الإمارات التركمانية في الأناضول، فحاولت أن تستغل الأزمة السياسية التي تمر بها دولة السلاجقة والدولة البيزنطية بعد أن ضعُفت قوتهما المركزية، فبدأت تُكثِّف أنشطتها وتشكل دويلاتٍ صغيرةً. وعندما زالت الدولة السلجوقية عام (٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤م) توزعت أملاكها علىٰ هذه الإمارات الصغيرة:

١- **إمارة القرمان**: أمراء القرمان ادّعوا الحق في ميراث الدولة السلجوقية، وقد سيطروا علىٰ مناطق واسعةٍ في الأناضول، ونجحوا في اكتساب موقع متميز، وأسسوا الإمارة القرمانية، ووصلوا إلىٰ ما وراء أنقرة. وهم أول من استخدم اللغة التركية لغةً رسميةً، وحذت حذوهم الإمارات الأخرىٰ، وكانوا يملكون قوةً سياسيةً دفعت لهم الإمارات الأخرىٰ الجزية.

٢- **إمارة كرميان**: ظهرت هذه الإمارة في مدينة كوتاهية وأطرافها علىٰ الحدود البيزنطية، وسعىٰ الكرمانيون إلىٰ التمدد باتّجاه

(١) كولز، بولز، العثمانيون في أوروبا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م، (ص٢٦).

الغرب، فنافسوا الإمارة القرمانية، وضعفت هذه الإمارة بسبب الخلافات علىٰ مفهوم الوراثة، وتقسمت إلىٰ إماراتٍ مستقلةٍ، وكانت هذه الإمارات تقوم بالجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام، ونشر الدعوة علىٰ الجزر والممتلكات البيزنطية:

- إمارة قرة سين في مدينة برغمة.
- إمارة آيدين في مدينة إزمير.
- إمارة صاروخان، في مدينة مغنيسيا

٣- **إمارة منتشا**: تقع علىٰ ساحل بحر إيجه، أشهر مدنها: مغلة وميلاس. وقد تقوت بما كانت تَشُنّه من غاراتٍ بحريةٍ علىٰ أملاك الدولة البيزنطية.

٤- **إمارة تكة**: تقع علىٰ ساحل البحر الأبيض المتوسط في المنطقة الجنوبية الغربية، وهيمنت علىٰ مدينة أنطاليا.

٥- **إمارة الحميد**: تقع داخل الهضبة الأناضولية.

٦- **إمارة قزل أحمدلي**: تقع علىٰ ساحل البحر الأسود في منطقة سينوب وقسطموني[1].

وقد كان أرطغرل يرغب في العيش مع قبيلته بين تلك القبائل

(١) طقّوش، مُحمَّد سُهيل، تاريخ العثمانيين: من قيام الدولة إلىٰ الانقلاب علىٰ الخلافة، (ص٢٤). الطبعة الثانية؛ بيروت - لُبنان: دار النفائس(١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م).

التركمانية في أمان بعيدًا عن مخاطر الشرق.

«ياسي جمن» وبعثة أرطغرل

لم تكن هجرة قبيلة أرطغرل -التي تتكون من أربعمائة عائلة[1]- بالأمر السهل، لقد تحملوا الترحل نحو ٩ سنوات مضت مع كندوز آلب وها هي سنة أخرىٰ في ترحلهم يتمون بها العشر، ولم تكن تلك العشر سنوات صعبة فقط علىٰ تلك القبيلة المترحلة، لكنها كانت أصعب وأشد وطأة علىٰ المسلمين أجمعين، تمكَّن

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٢٧

التتار فيها من جميع بلاد المسلمين واستولوا علىٰ جميع أملاك الخوارزميين وطاردوهم وهرب زعيمهم محمد بن خوارزم شاه عن طريق البحر إلىٰ جزيرة في وسط بحر قزوين، ليختبئ داخل قلعة وحيدًا طريدًا شريدًا فقيرًا وما هي إلا أيام حتىٰ جاءه ما كان يفر منه.. جاءه الموت ولم يجدوا ما يُكَفِّنُونه به، فكفَّنُوه في فراش كان ينام عليه.

وفي أثناء المطاردة أسر التتار نساءه ووالدته ومعهم الأموال الغزيرة والذخائر النفيسة التي لم يسمع بمثلها.

وكان جنوب دولة خوارزم تحت سيطرة «جلال الدين محمود بن محمد بن خوارزم شاه» الذي أصبح الزعيم للبلاد بعد أبيه؛ وبدأ توجه التتار إليه ودارت بينهما حروبٌ كثيرة كان النصر في بدايتها حليفًا للمسلمين ولأول مرة يهزمون التتار، لكن حب الدنيا جعلهم يقتتلون علىٰ الغنائم ويتفرق جمعهم من أجل المال، أدىٰ ذلك إلىٰ الانهزام المتكرر ثم إلىٰ هروب جلال الدين إلىٰ الهند وقتل أطفاله علىٰ يد التتار.

وفي وقت ما تهيأت الفرصة لغياث الدين أخي جلال الدين الذي كان يحكم بلاد فارس (إيران)، لاستعادة أملاكهم، لكن هيهات أن يرشُد المسلمون وقد تمكنت الدنيا منهم فدارت المؤامرات

هنا وهناك والقتال بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم مسلمون، والتتار علىٰ أعتابهم تهدد بلادهم!

وبعد خمس سنوات من هروبه ظهر جلال الدين (٦٢٢ هـ) واستبدل بصراعه مع التتار صراعات مع المسلمين أولها مع أخيه غياث الدين، واستمر في صراعه هذا حتىٰ مع موت جينكيزخان (٦٢٤ هـ) الذي هدأت معه وطأة التتار نسبيًا!

وفي ظل التنازع بين أحفاد صلاح الدين وتصدع البيت الأيوبي، تحالف جلال الدين مع «المعظم عيسىٰ»، ضد أخويه «الكامل محمد» و«الأشرف موسىٰ» وحليفهم علاء الدين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الروم وبدأ الصراع المسلح بين الإخوة وكلٍّ من أحلافهم وتعقّد الوضع السياسي والعسكري في شمال الشام.

وفي عام ٦٢٧هـ=١٢٣٠م، تمكن جلال الدين بن خوارزم شاه من دخول خلاط بخيانة من القائد المكلفَّ بحراسة أحد الأبواب، ولحَنَقه من المقاومة الشرسة التي واجهته فعل بأهلها ما يفعله التَّتر، فقتل كُلَّ من وجد في البلد وسبىٰ عسكرُه الحريمَ وباعوا الأولاد كما يُفعل بالكفرة، وحاصرها أشد حصار، ونصب عليها عشرين منجنيقًا من ناحية البُحيرة، وتضوّر الخلاطيون بسبب الحرب الجوع حتىٰ أكلوا لحوم الكلاب.

وعند ذلك حشد السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ عشرين ألفًا، وسار

إلىٰ ملطية ووجه عشرة آلاف إلىٰ أرزنجان[1]، وأبقىٰ العشرة لديه، وكتب إلىٰ الأشرف يشجعه، ويصرِّح له بأنه متوجه بنفسه إلىٰ خلاط ليبارز خوارزم شاه.

وبدأت المواجهة الحقيقية بين علاء الدين كَيْقُبَاذ وجلال الدين بن خوارزم شاه ودارت بينهما الحروب علىٰ أشدها[2].

في أثناء ذلك كان أرطغرل مع قبيلته في مسيرهم حتىٰ وصلوا إلىٰ أرزنجان يريدون التوجه إلىٰ «جنوب الأناضول» عند حدود بيزنطة، فشاهد جيشين مشتبكين، فوقف علىٰ مرتفع من الأرض ليُمتّع نظره بهذا المنظر المألوف لدىٰ الرُّحَّل من القبائل الحربية، ولما أَنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه إن لم يمد المساعدة، دبت فيه النخوة الحربية، ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين[3].

خاطب الغازي أرطغرل فرسانه قائلًا: «أيها المحاربون لقد قادتنا الدروب إلىٰ ساحة الوغىٰ. وبما أن سيوفنا ترقد في أغمادها ليس

---

(١) من بلاد أرمينية تقع بين بلاد الروم وخلاط، معظم أهلها أرمن، ويوجد بها بعض المسلمين يعدون أعيان أهلها.

(٢) ذكرنا تفاصيل كل تلك الأحداث بشكل واسع في كتابنا: «أرطغرل قصة بناء وطن» فمن أراد التوسع فليرجع إليه.

(٣) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (ص٨٦).

من الرجولة في شيء أن نعبر دون إغاثة الملهوف، فما أنتم فاعلون؟». فرد البعض بالقول: «من الصعب أن نورط أنفسنا في مساعدة الطرف المهزوم، دعونا لا نرمي بأنفسنا إلىٰ التهلكة!». ولكن أرطغرل أجابهم: «لا تليق هذه الكلمات بالفرسان، وليس من الشهامة أن ندير ظهرنا لإخوة في أمس الحاجة إلينا، هيا فلنهُبَّ لمساعدتهم في هذا اليوم العصيب، ولتكن سيوفنا مددًا وعونًا لهم»[1].

وعلىٰ أثر هذه الكلمات هاجم أرطغرل ومحاربوه الجيش الثاني بقوة وشجاعة عظيمتين حتىٰ وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر، لولا هذا المدد الفجائي، وأعمل فيهم السيف والرمح ضربًا ووَخزًا حتىٰ هزمهم شر هزيمة، وبعد تمام النصر علم أرطغرل أن الله قيضه لنجدة جيش دولة السلاجقة بقيادة السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ الأول في معركة ياسي جمن (**yassciemen**) علىٰ جيش السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم[2].

---

(١) شيمشيرغيل، البروفيسور أحمد، سلسلة تاريخ بني عثمان، سلالة أرطغرول، الدار العربية للعلوم والنشر، الطبعة الأولي، (ص١٨).

(٢) الجويني، عطا ملك، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، دار الملاح للطباعة والنشر، الطبعة الأولي، ١٩٨٥م، (ص٢٧٢).

وانكسر الخوارزميون كسرة عظيمة، وقتل منهم خلق كبير لا يحصىٰ عددهم، واستأسر بعض الأمراء والجبابرة المشاهير، وانهزم الكثيرون منهم إلىٰ طرابزون وبلاد الكرج، وسقط نحو ألف وخمسمائة فارس من كهف عالٍ ليلًا وماتوا[1].

وقد تحمِل تلك الرواية بعض الدراما لكنها مؤكدة تاريخيًّا من حيث الواقعة، وقد نقلها المؤرخ المشرقي نشري **Neschiri** علىٰ عهدة مولانا أياس، الذي سمع رواية المعركة من صاحب ركاب «أورخان» حفيد أرطغرل، الذي سمعها من أرطغرل نفسه، وأخبرها لأتباعه[2].

ويبدو أن أرطغرل في هذا الوقت كان قد سكن أطراف الأناضول، وليس كما تُصوره بعض الروايات أنه كان مارًّا بها مصادفة، فحدث ما حدث؛ لأن اشتراكه في المعركة إلىٰ جانب علاء الدين كَيْقُبَاذ السلجوقي، يَدعَم وجوده منذ فترة ومعرفته التامة بالسلاجقة ولو كان قادمًا من الشرق في هذا التوقيت كان من المنطقي أن ينضم إلىٰ جلال الدين خوارزم الذي كان يعيش في كنفه؛ وليس إلىٰ علاء الدين كَيْقُبَاذ.

---

(١) ابن العبري، مخطوطة تاريخ الأزمنة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧م، (ص٩٣).

(٢) انظر: فون هامر، هامش صفحة ٦٢ بالجزء الأول. نقلًا عن تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص ٢٧.

وإلىٰ ما ذهبنا تشير بعض الروايات، فقد أرسل أرطغرل ابنه «صاروبتي» المعروف بـ «صاوجي بك» إلىٰ السلطان علاء الدين السلجوقي يلتمس منه مسكنًا له ولقبيلته ومرعىٰ لمواشيهم، فأجاب له الطلب، ثم توفي صاوجي بك وهو عائدٌ إلىٰ أبيه[1].

وصرح بذلك حاجي خليفة، فقال: «ومكث في ذلك الموضع يجاهد الكفار. ثم أرسل ابنه «صاروبتي» إلىٰ علاء الدين السلچوقي يستأذنه في الدخول إلىٰ بلاده، ويطلب منه موضعًا ينزل فيه ، فأذن له وعين له جبال طوماني[2] وأرمنك ، وما بينهما فأقبل أرطغرل مع أربعمائة من قومه فتوطنوا في «قره جه طاغ» ولما قصد علاء الدين غزو الكفار، قدموا إليه نجدة له، فازدادوا عند السلطان قربًا»[3].

وربما يكون في تعيين ابن أرطغرل خطأ ما، ومن المحتمل أن يكون الذي أرسله أرطغرل رجلًا آخر من أتباعه؛ لأن المشهور أن

---

(١) إبراهيم بك حليم: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مطبعة ديوان عموم الأوقاف – القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م، (ص٣٤، ٣٥)، أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق: أحمد حطيط، فهمي سعد، دار عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢م، (٣/ ٦، ٧).

(٢) وتقع هذه الجبال في أطراف اينه گول التابعة الآن لولاية بورصة.

(٣) تواريخ ملوك آل عثمان – من كتاب فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار، حاجي خليفة، تحقيق الدكتور سيد محمد السيد ص ١٣٣. مؤسسة العالي أتاتورك للثقافة واللغات والتاريخ – أنقرة ٢٠٠٩.

ومثل ذلك تجده في: «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» لحسين خوجه، ١/ ٨٦– ٨٧.

«صاوجي بك» ولد قرابة عام (١٢٣٣م) في مدينة سوغوت، واستشهد في معركة دومانيتش عام (١٢٨٨م). وفي رواية لطفي باشا ما يؤيد ذلك، قال: «فأرسل أرطغرل رجلًا إلىٰ السلطان علاء الدين وطلب منه مكانًا ليستقروا به»[١].

المقصد أن أرطغرل أرسل يستأذن السلطان فور وصوله مشارف الأناضول، ومات الرسول قبل أن يأتيه بالموافقة، بعد ذلك كانت مشاركته في المعركة مع علاء الدين كَيْقُبَاذ، الذي وضح أنه كان يعرفه وأراد أن يدعمه.

الجائزة وطن

كانت معركة «ياسي جمن» بالنسبة لأرطغرل يومَ بُعَاث جديد[٢]، ليتهيأ له الوطن الآمن، والحياة المطمئنة، ثم الدولة القوية بعد ذلك.

---

(١) تواريخ آل عثمان، للصدر الأعظم لطفي باشا (ص ١٠٣) ترجمة: محمد عبد العاطي محمد، ، الطبعة الأولىٰ، دار البشير ١٤٤٠هـ=٢٠١٨م.

(٢) **يوم بُعَاثَ**: هو يوم تقاتل فيه الأوس والخزرج في الجاهلية، وبعاثُ مكان قريب من المدينة، فتفرقت جماعتهم وقتل خيارهم وأشرافهم. فكان ذلك تقدِمة لدعوة النبي ه فتهيأ هؤلاء لقبول الإسلام والإقبال عليه وشعروا بمزيد الحاجة إليه، تقول عائشة ﵂: «كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِّلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا، قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ه فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلاَمِ» [رواه البخاري (٣٧٧٧)].

بعد الانتصار الكبير الذي حققه أرطغرل في معركة «ياسي جمن» أصبحت العلاقة قوية ما بين السلطان علاء الدين السلجوقي مع أرطغرل، وأصبح الثاني هو وقبيلته تابعًا للدولة السلجوقية في قونية[1].

ومن الأمور المؤكدة أن أرطغرل غازي وعشيرة قايي قد اكتسبوا تقدير البادشاه التركي، وكُوفئوا علىٰ ذلك بتمكينهم من الحصول علىٰ أراضٍ في الغرب علىٰ الحدود البيزنطية.

ومما لا شك فيه أن أرطغرل بك لم يعامل كأحد الأمراء الكبار المرتبطين بالحاكم التركي وبقونية، فيبدو أن عدد عشيرته لم يكن كبيرًا جدًّا، ولكن البادشاه السلجوقي منح أرطغرل غازي بك حدوديًّا صغيرًا جدًّا في سوغوت عند ولاية بيله جك، ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها وأعطىٰ أرطغرل غازي لأمر أمير بني جوبان، الأمير الأكبر، القطاع الشمالي من الحدود البيزنطية، وهكذا استوطن أرطغرل بك وعشيرة قايي في القسم الشمالي الغربي من الأناضول. وقد كان ذلك في عام ١٢٣١م علىٰ أرجح الأقوال.

قطع أرطغرل مسير قرابة ٩٠٠ كيلو مترًا إلىٰ مدينة «اسكي شهر»

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، سلالة أرطغرل، (ص٢٥).

التي تقع بين القسطنطينية عند أراضي بيزنطة، وقونية عاصمة السلاجقة، وتقع الأراضي التي أُعطيت له ولعائلته لإدارتها والتي تُسمَّىٰ «يورد» عند حدود «اسكي شهر» -بيله جك- كوتاهية من الجمهورية التركية الحالية. وتقدر مساحة هذه الإقطاعية بما بين ١٠٠٠ إلىٰ ٢٠٠٠ كيلو متر مربع. وهكذا وضع حجر أساس الدولة العثمانية في ١٢٣١م.

وأخيرًا تحقق حُلم أرطغرل بأن يكون له وطن فيعيش آمنًا هو وقبيلته، وهنيئًا لمن هذا حُلمه، فكأن الدنيا بأجمعها بين يديه، وهي سعادة حقيقية لن يشعر بها إلا مَنْ هُدِّد في رزقه وأَمْنه؛ ولقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًىٰ فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[1].

كان كل ما يشغل أرطغرل أن يعيش آمنًا هو وقبيلته، بعيدًا عن الصراعات والحروب والغزو المغولي، كان كل ما يرجوه أن يجاور قبائل التركمان في الأناضول تحت ظل السلاجقة الروم، كل ما يحتاجه مكان آمن، يعيش فيه وأسرته وقبيلته، ليس له طموح الاستقلال أو التفرد، لم يكن زعيمًا بل كان قائدًا، لا يهمه

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٤١٤١)، وابن حبان (٦٧١)، والطبراني: المعجم الأوسط، (١٨٢٨)، وحسنه الألباني، **انظر**: السلسلة الصحيحة (٢٣١٧).

بناء الحجر، بقدر ما يهمه بناء البشر، لا يشغله العمران بقدر ما يهتم بالأبدان، لم يسعَ لسكنىٰ القصور، بل تطلع لإيمان الصدور.. يبدأ بأسرته وعشيرته، يُرسي القيم ويبحث عن وطن يربيهم فيه كما يَجري الراعي علىٰ غنمه، يبحث لها عن مرعًىٰ طاهرٍ نقي.

إقطاعية سوغوت

تبدو مشكلة الوطن محلولة بعد إقطاع علاء الدين أرطغرل الأرض، لكنه في حقيقة الأمر صار التحدي أصعب، إنَّ ما كان يرجوه أرطغرل هو أن يجاور القبائل التركمانية، فيعيش إلىٰ جوار من يشتركون معه في العِرق والدين، أما الإقطاع الجديد الذي أُعْطِيَ لأرطغرل فكان يشكل خطرًا كبيرًا لم يتوقعه أرطغرل؛ إذ كان في أقصىٰ غرب الأناضول في منطقة سوغوت[1].

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٨٦، (٥/ ٨١٤)، وبيتر شوجر: أوروبا العثمانية ١٣٥٤- ١٨٠٤ (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة)، ترجمة: دكتور عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨، (ص٢٩)، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلىٰ الانقلاب علىٰ الخلافة، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م، (ص٢٥)، نقلًا عن كوبرولي: محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، (ص١٢٢)، قال إسماعيل سرهنك: أقطعهم الأراضي الواقعة بجهتي طومانيج واسكي شهر (٦٦٣هـ- ١٢٦٤م)، إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، (١/ ٤٨٤).

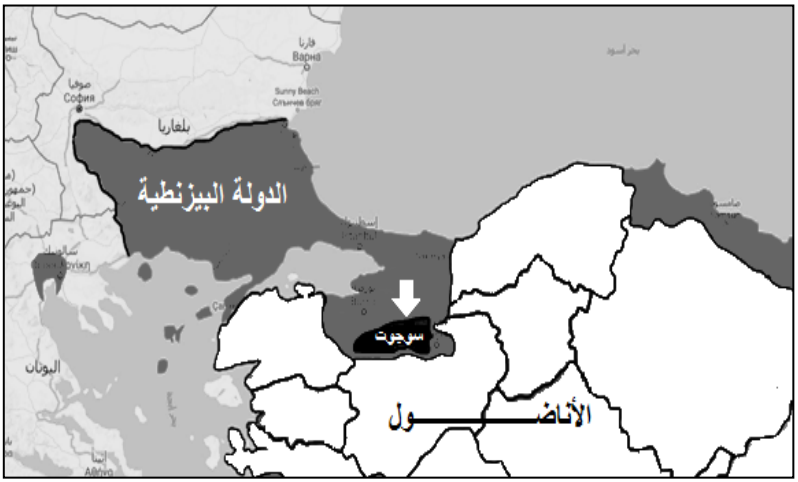

وكما توضح الخريطة، نجد أن هذه المنطقة تقع علىٰ حدود الدولة البيزنطية، والتي كانت العدو الأول للسلاجقة آنذاك، بل مع بعض التدقيق نجد أنها تقع داخل الأرض البيزنطية نفسها، وكأن علاء الدين كَيْقُبَاذ أَقْصَىٰ أرطغرل في أرض العدو، وأذن له بالتوسع والعيش هناك!

ولا أجدُ تفسيرًا لذلك، ولكن طبيعة هذا العصر (عصر الصراع والضياع) قد توجهنا إلىٰ إبعاده عن المشهد حتىٰ لا يخطف الأضواء، ومن ثَمَّ يخطف الإمارة وتكون له الكلمة!

كانت الدنيا ظلامًا -لا محال- أمام أرطغرل، لكنَّ الله أراد له النور الذي يضيء العالم بأسره، فمن هذه الأرض البعيدة الخَطِرَة، خرجت أكبر الدول الإسلامية عُمرًا، وكذلك أوسعها انتشارًا،

فكان هذا الإقطاع محنة ظاهريًّا، لكنه في حقيقة الأمر منحة ربانية، فهذه الأرض تحظىٰ بعدة مميزات مما سهل لها تأسيس دولة قوية في ظل دول عظمىٰ متصارعة وإمارات تركمانية متنازعة[1].

ومما امتازت به الأرض:

١- كانت بعيدة -من الناحية الجغرافية- عن منطقة الغزو المغولي، وكانت بعيدة عن الإمارات التركية القوية في جنوب الأناضول.

٢- كانت هي المنطقة الوحيدة بمنزلة رباط يواجه المناطق البيزنطية التي لم تفتح، فسائر الإمارات التركية ما عدا إمارة أرطغرل كانت ممتدة إلىٰ الساحل، فكانت الإمارات التركية في حال نزاع فيما بينها، لتقسيم الأراضي المجاورة أو الأراضي البيزنطية.

وبسبب وجود قبيلة أرطغرل في مواجهة الدولة البيزنطية كانوا أقوىٰ العائلات التركية في المنطقة، فهم في جاهزية للقتال دائمًا لا يتركون السلاح؛ مما جعلهم مؤهلين لوراثة الدولة السلجوقية بعد سقوطها.

٣- كان للمكان سحر خاص للجند والمحاربين والتركمان الرحل الذين يسيل لعابهم للفتح والتمكين؛ فهم القلب النابض في

(١) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٨٨).

المقاطعة الجديدة، وكانت من أكثر المناطق كثافةً في السكان، فانضم الدراويش الذين يبحثون عن مريدين ومشايخ، فكانوا يتلهفون للجهاد والغزو، وكل منهم ينتسب إلىٰ أحد الطرق الصوفية وإلىٰ أحد التكايا، حيث كانوا يتوقون للجهاد وشعارُهم «إعلاء كلمة الله». وكان الحكام الأتراك الذين في إمارة أرطغرل يقدِّمون مساحات شاسعة من الأراضي، أو إتاحة فرص الغنائم لكل من ينضوي تحت لوائهم، وتزايد العدد في جيل عثمان وأبنائه، واستطاعوا أن يؤثِّروا في السكان النصارىٰ، فسرعان ما تحولَّوا إلىٰ الإسلام بعد رؤيتهم لهذه القبيلة وقائدهم أرطغرل وأبنائه، فكانت هذه المقاطعة بعد توسعها من أكبر الإمارات في المنطقة عددًا، في زمن أورخان (حفيد أرطغرل) بلغ سكانها ثلاثة ملايين إنسان! في الوقت الذي كان سكان إنجلترا لا يتجاوز مليونَيْ إنسان[1]!

٤- كانت دولة بيزنطة المعادية قد اقتربت من نهايتها، فأصبحت آيلة للسقوط، ولكي تستطيع الاستمرار من الناحية الاقتصادية كانت تسُوم رعاياها الظلم من الناحية الإدارية، وتفرض عليهم الضرائب الباهظة، وكون البيزنطيين والصرب والبلغار

(١) **انظر**: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٩٧).

أرثوذكسيين، فإنه بدلًا من مجيء المعونات لهم من أوروبا كان العكس هو ما يحدث، فساعدت هذه العوامل علىٰ توسع قبيلة القايي داخل الأراضي الأوربية بعيدًا عن أملاك القبائل التركية ودون صدام مع القوىٰ الإسلامية في الأناضول، بينما ظلَّت الإمارت الأخرىٰ ثابتة في حجمها أو ربما تقلصت.

٥- كانت هذه الأرض خصبة ومؤهلة للإنتاج، ولها موقع إستراتيجي مهم وهو قربها من مضيقي البوسفور والدردنيل، فكانت سببًا في الثراء وبناء اقتصاد قوي، ساعد في تكوين الدولة القادمة.

كانت هذه أهم العوامل التي جعلت من المنفىٰ منفذًا، ومن الضياع بقاعًا، فخرجت الدولة العثمانية من رحم سوغوت الفانية!!

وإن الصورة أقوىٰ تعبيرًا من آلاف الكلمات، فانظر إلىٰ الإقطاعية كيف كانت، ثم انظر كيف صارت في أقصىٰ توسع للدول العثمانية:

مقاطعة سوغوت حينما تسلمها أرطغرل

أقصىٰ توسع للدولة العثمانية

لم يَسُد السلام إلا قليلًا علىٰ الحدود أيام أرطغرل بالقرب من أُولىٰ الأراضي التي مُنحت له، فبابشر أرطغرل الغزو علىٰ البيزنطيين وكان في أول غزوة غزاها تجهز وسار في نحو خمسمائة فارس من رجال أبطال وصناديد أقيال وشن الغارات علىٰ تلك البلاد وأخذ وأسر من أهلها شيئًا كثيرًا وأرسل هدايا وأسرىٰ إلىٰ السلطان السلجوقي فاستسر لذلك[1].

أصبحت لدىٰ أرطغرل فرص عاجلة ومتواترة لزيادة شهرته العسكرية،

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» لحسين خوجه، ١/ ٨٧.

وإدخال السرور علىٰ أتباعه بغنائم الغزوات والهجمات الناجحة. فتوافد أجسر المغامرين الأتراك تحت راية ذلك الزعيم الناجح الجديد من بني جنسهم، واعترف علاء الدين بكل سرور بقيمة خدماته الإقطاعية، عن طريق امتيازات جديدة وعلامات الثقة وزيادة العطايا من الأرض[1].

كان استيطان زعيم مخلص وعشيرة قوية -مثل أرطغرل وأتباعه- ضمن سيادة السلطان موضع ترحيب كبير فيما بعد، فتحول الإقصاء إلىٰ قُرب، لا سيما أن الوافدين الجدد كانوا كالسلاجقة أتباعًا متحمسين للعقيدة الإسلامية. وكان الهلال هو الشعار الذي وضعه علاء الدين علىٰ رايته، وكنائب لعلاء الدين اتخذ أرطغرل نفس الشعار؛ إذ كان الهلال بالنسبة لقومه سببًا في إرهاب العالم المسيحي لقرون، كرمز للهجوم الإسلامي، وكشعار مختار للقوة العثمانية الفاتحة[2].

وصار السلطان لا يعتمد في حروبه مع مجاوريه إلا عليه وعلىٰ رجاله، وكان عقب كل انتصار يُقطعه أراضيَ جديدة، ويمنحه أموالًا جزيلة، ثم لقب قبيلته بمقدمة السلطان؛ لوجودها دائمًا في

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٠
(٢) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٠

مقدمة الجيوش وتمام النصر علىٰ يديه، فبرز اسم أرطغرل ومنح لقب «أوج بكي»؛ أي: حامي الحدود، وهو اسم مهم لدىٰ السلاجقة[1].

وفي يوم نازل علاء الدين قلعة كوتاهيه، وكانت للكفار. فلما قرب من أخذ القلعة، بلغه أن التتار يطرق بعض بلاده، فنهض إلىٰ طرف العدو، وفوض أمر القلعة إلىٰ أرطغرل، وتركه بها مع بعض العسكر. ولم يزل حتىٰ فتحها عنوة، وغنم شيئًا كثيرًا[2].

وفي إحدىٰ المعارك التي حارب فيها أرطغرل كنائب لعلاء الدين، أمام جيش مختلط من [البيزنطيين] والمغول، بين بورصه ويني شهر، قام بِصَف قواته بحيث يتم إطلاق حشد من الخيالة الخفيفة التي تسمىٰ آقنجي **Akindji**، قُدُمًا علىٰ العدو، وبالتالي يتم إخفاء مركز الجيش الرئيسي تمامًا، الذي -باعتباره موضع التقدير- كان يُطلق عليه مركز السلطان. أحكم أرطغرل قبضته علىٰ المركز بنفسه علىٰ رأس الأربعمائة وأربعة وأربعين فارسًا، أتباعه الأصليين، الذين حازت سيوفهم النصر في هذا اليوم لصالح

(١) أزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٨٦).

(٢) تواريخ ملوك آل عثمان – من كتاب فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار، حاجي خليفة، ص ١٣٣.

علاء الدين. كان النظام الذي اعتمده أرطغرل نظامًا مُنْهِكًا للعدو من خلال الصدام مع كتلة من القوات غير النظامية، ومن ثم الضغط عليه باحتياطي من أفضل الجنود، فكان ذلك لعدة قرون هو التكتيك المفضل لسلالته. كانت تلك المعركة التي خدم فيها طويلة وصعبة، ولكن كان النصر الكامل في النهاية حليفًا للقائد التركي. وفور عِلْم علاء الدين بذلك الإنجاز الذي تحقق علىٰ يد تابعه الباسل الماهر، مَنح له أراضيَ إضافية من أسكي شهر **Eskischeer**، واحتفاءً بالطريقة التي نظم بها أرطغرل جيشه، أطلق علاء الدين علىٰ إمارته اسم «سلطان- سيني» وتعني «سلطان الجبهة»[1].

في مدينة سوغوت عند حدود بيزنطة استقلت عشيرة القايي صغيرة الحجم التي لم تتجاوز ٤٠٠ خيمة ولم تتجاوز ٤٠٠٠ شخص بما فيهم النساء والرجال بقيادة زعيمها أرطغرل[2]، وكان أرطغرل في الأربعين من عمره عندما تسلَّم إقطاعيته الجديدة، ومات في التسعين تقريبًا[3]، أي أنه عاش نحو ٥٠ سنة في هذه الإقطاعية،

---

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ترجمة د. أحمد سالم سالم، ص٣٠، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة/ قطر، ٢٠١٩م.

(2) Cambridge Medieval History: IV P654.

(٣) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» لحسين خوجه، ١/ ٨٨.

وقد استطاع في هذه الفترة أن يضع الأساس لبناء الوطن، ومهد الطريق للتحول من طور القبيلة إلىٰ الدولة، فوسع أرطغرل مدينة سوغوت من ١٠٠٠ كم إلىٰ ٤٨٠٠ كم[١]، وكانت كل هذه الزيادة من الأراضي البيزنطية حوله.

وكانت هذه المدينة يقيم فيها أرطغرل في الشتاء؛ لأنها مدينة دافئة، ويوجد فيها قبور الكثير من قادة قبيلة القايي، (أرطغرل وزوجته حليمة وبعض أبنائه وكثير من المحاربين)، ثم فتح مدينة «دومانيتش» التي كانت مصيفًا لأرطغرل وقبيلته؛ لأنها مرتفعة وباردة في الصيف، ويوجد فيها قبر هيماه والدة أرطغرل[٢].

واتسم هذا التوسُّع بالبطء الشديد، مما يدل علىٰ حكمته وتقديره للأمور، وفهمه طبيعة الإصلاح الذي يبدأ بالفرد ثم الجماعة ثم الأمة، فزادت مساحة إقطاعيته مرتين دون أن يثير غائلة مَنْ حوله من قبائل التركمان المسلمة في الأناضول، ولا أثار حفيظة الدولة البيزنطية، فحافظ علىٰ وجوده خمسين سنة كاملة، ولو تعامل برُعونة لابتلعته إحدىٰ هذه القوىٰ الكبيرة حوله.

لقد كان هذا التوسع هادئًا للغاية، حتىٰ إن المؤرخين المعاصرين

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٨٧).

(٢) كولز، بولز، العثمانيون في أوروبا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م، (ص٢٥).

لم يلحظوه، فلم يُسجِّل واحدٌ منهم خطواته في التوسع ولا صداماته؛ لكن في النهاية نجح في تسليم ابنه عثمان مساحة مقبولة من الأرض.

القائد الحقيقي، هو من يكون عنده سياسة حكيمة للنهوض بشعبه، دون تهور يدفع إلىٰ صدام، أو تهاون يفلته الزمام.

أرطغرل مُربيًا

لم يكن أرطغرل ينشغل كثيرًا بالأرض أين تقع، كان ما يشغله هو رعاية قبيلته وأهله، يبدأ بأسرته وعشيرته، يُرسي القيم ويبحث عن وطن يربيهم فيه كما يَجري الراعي علىٰ غنمه، يبحث لها عن مرعًىٰ طاهرٍ نقي.. يبني البشر لا الحجر.. ويُعمّر الصدور لا القصور.

فالفرد أساس المجتمع، وهو المكوِّن الأساسُ للشعوب والدول، فإذا صلَح، صلحت الدولة، لذا سعىٰ الإسلام إلىٰ إعداد الفرد وتكوينه ليكون عضوًا نافعًا وإنسانًا صالحًا في الحياة، وجعل السبيل إلىٰ ذلك التربية، بل هو مدار بعثة النبي ﷺ؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[الجمعة:٢]، والتزكية هي التربية، وأعظم -بل أسمىٰ- ما يُربَّىٰ عليه الفرد تحقيق العبودية لله رب العالمين وإخلاص العبادة

له والسلامة من الشرك[1]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويزكيهم: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية»[2].

سار أرطغرل في طريق المصلحين، وأراد أن يُعِدَّ قبيلته إعدادًا محكَمًا، وأن يربيهم علىٰ القيم والمُثُل، ويزرع فيهم الإيمان بالله والعمل الصالح، وينبت فيهم نبتة تكون وارفة الظلال كثيرة الأفنان فيما بعد.

أسس أرطغرل نظامًا اجتماعيًّا يتكوَّن من مؤسسات اجتماعية من الدراويش والمشايخ الذين انضموا لمعسكر قبيلة القايي لأنها الإمارة الوحيدة التي بمنزلة رباط علىٰ الحدود البيزنطية، وطوَّر عثمان بن أرطغرل نظام المؤسسات في الدولة، وهي عبارة عن زوايا وتكايا بعد أن ازداد عهد الدراويش والمجاهدين والمحاربين، فجعل لها نظامًا بدعم الشيخ جلال الدين الرومي[3]،

(١) من أخطائنا في تربية أولادنا وطرق علاجها في الإسلام د. محمد عبد الله السحيم (ص٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١٩٦).

(٣) لستُ في محل مناقشة العقائد الآن، لكن يجدر التنبيه علىٰ الانحراف الذي طرأ في حياة جلال الدين الرومي، بعد مقابلته بشمس الدين التبريزي، فكان يؤمن بالحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، وأن الله هو عين المخلوقات، وكذا وحدة الأديان. ومن كلامه: (مسلم أنا ولكني نصراني، وبرهامي، وزرادشتي، ليس لي سوىٰ معبد واحد: مسجد، أو كنيسة، أو بيت أصنام)، وقال عنه ابن الآلوسي: «وأما الصدر الرومي (جلال الدين الرومي صاحب المثنوي) فإنه كان متفلسفًا فهو أبعد عن الشريعة والإسلام»، ومع الأسف هناك توجه كبير لتعظيمه في الأدب والفنون والثقافة، وبث طريقته المولوية عوضًا عن الحق وشغلًا بالباطل.

والشاعر يونس أمره وآخي أوران[1].

اعتمدت القبيلة علىٰ البناء الإيماني الداخلي والتربية الروحانية لكل أبناء القبيلة، فكانت أجواء القبيلة مفعمة بالإيمان التي تقودهم إلىٰ مواجهة الأعداء، فكانت روح التزكية والبحث عن الشهادة تَسْري في أرواح المجاهدين.

كانت التربية الصوفية التي تدعو للزهد والجهاد في سبيل الله ونصرة المظلوم هي المحرك داخل أوساط القبيلة، وكانت الجندية والتدرج في سلسلة المراتب القيادية تسري في صفوفهم، وهذا النظام هو الأساس في المجتمع التُّركيِّ القديم، ويستند علىٰ النظام العسكري، وهو عبارة عن مخيم عسكريٍّ كبير فيه جيشٌ متدربٌ يستطيع الوقوف أمام أكبر جماعات الأعداء في سبيل الذود عن الحرية والاستقلال أو بقصد الفتوحات.

***

(١) كولز، بولز، العثمانيون في أوروبا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م، (ص٢٦).

الباب الثالث

رحلة عثمان

«لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانًا عميقًا بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعًا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف».

قادر مصر أوغلو
مُؤرخ تركي

يرىٰ المؤرخ العثماني والصدر الأعظم لطفي باشا أن عثمان غازي مجدد الدين الإسلامي علىٰ رأس القرن السابع الهجري[1]، وقد دأب العلماء في استقراء المجددين في كل قرن التماسًا لموعود النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[2].

وهذا من رحمة الله بالأمة الإسلامية بل بالإنسانية كلها، وهو طوق النجاة الذي يرسله الله لعباده كلما أشرفوا علىٰ الغرق والانهيار والتفرُّق؛ لأن الله سبحانه يعلم حقيقة خلقه، ويعلمُ أنه كلما تقادم بهم الزمان ابتعدوا عن منهجه وصراطه المستقيم، فتَجَلَّت رحمة الله تعالىٰ عليهم أنه بعث لهذه الأُمَّة مجدِّدين يصنعهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ عينه؛ ليوقظوا هذه الأُمَّة من سُباتها، ويعودوا بها إلىٰ صفاء نبعها.

والمجدِّدُون يُبعثون بحسب الحاجة إلىٰ التجديد؛ لِمَا أَبْلَىٰ الناسُ من لباس الدين، وهدموا من بنيان العدل بين الناس، لذلك يقول ابن حجر رحمه الله: «إنَّه لا يلزم أن يكون في رأس كلِّ مائة سنة واحد

---

(١) لطفي باشا: تواريخ آل عثمان، ترجمة: محمد عبد العاطي محمد، ص ٨٦.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم (٨٥٩٢)، وقال الألباني: صحيح. **انظر**: السلسلة الصحيحة (٥٩٩).

فقط... فإنَّ اجتماع الصِّفات المحتاج إلىٰ تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أنَّ جميع خصال الخير كلّها في شخص واحد، إلاَّ أن يُدَّعىٰ ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنَّه كان القائم بالأمر علىٰ رأس المائة الأولىٰ باتِّصافه بجميع صفات الخير، وتقدُّمه فيها... أمَّا مَنْ جاء بعده كالشافعي وإن كان متَّصفًا بالصِّفات الجميلة، إلاَّ أنَّه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلىٰ هذا كلُّ مَنْ كان متَّصفًا بشيءٍ من ذلك عند رأس المائة هو المراد، سواء تعدَّد أم لا»[1].

فليس عثمان مجدد الأمة في ذلك الوقت وحده، لكن هناك مجددين آخرين تكلم عنهم العلماء باستقراء وتمعن[2]، والحاصل أن بلوغ عثمان تلك المرتبة يحتاج أن نعمق النظر في تاريخه.

---

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).

(٢) **علىٰ سبيل المثال:**

- ابن دقيق العيد (٦٢٥ هـ - ٧٠٢ هـ)، عدَّهُ الإمام الذهبي وجلال الدين السيوطي من مجددي المائة السابعة.
- ابن عطاء الله السكندري (٦٥٨ هـ - ٧٠٩ هـ)، عدَّهُ محيي الدين الطعمي كذلك.
- السلطان إسماعيل فرج (٦٧٧ هـ - ٧٢٥ هـ)، عدَّهُ الطاهر ابن عاشور.
- ابن تيمية (٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ)، عدَّهُ محمد رشيد رضا.
- ابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ) عدَّهُ محمد رشيد رضا أيضًا.
- جمال الدين الإسنوي (٧٠٧ هـ - ٧٧٢ هـ)، عدَّهُ زين الدين العراقي.
- أبو إسحاق الشاطبي (توفي سنة ٧٩٠ هـ)، عدَّهُ عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم.

نشأة عثمان

عثمان بن أرطغرل: هو الأميرُ الغازي القايوي التُركماني، يدعىٰ عثمان الأول وعثمان غازي، ويُعرف كذلك باسم عُثمان بك (بالتُركيَّة المُعاصرة: **Osman Bey**) وقره عُثمان (بالتُركيَّة المُعاصرة: **Kara Osman**) وإليه تنسب الدولة العثمانية الشهيرة.

كان أرطغرل قد تزوج من السلطانة حليمة عام (١٢٢٧م)، وأقرب الروايات أن حليمة هي ابنة السلطان غياث الدين مسعود بن كيكاوس السلجوقي[١].

وكان للسلطانة حليمة شأن وتأثير كبير في تاريخ قبيلة القايي، ودعم زوجها الغازي أرطغرل عندما ساد القبيلة، وهي التي ترعرعت ونشأت في قصور السلاجقة من السلالة السلجوقية، ثم انتقلت إلىٰ خيمة السيادة في قبيلة القايي بجانب الأم هيماه، وبصحبة زوجها أرطغرل ووالده، والمرأة التركية لها أهميتها في مجتمع الأتراك، ليست زوجة فقط بل أكبر من ذلك، تساعد زوجها في مختلف جوانب الحياة، وتربي أبناءها تربية فريدة من الجوانب القيادية والشخصية، وتحمل السيف، وتدافع عن نفسها،

(١) Claude, Pre - Ottoman Turkey,P. 295.

فالمرأة التركمانية كانت منذ عصور قديمة علىٰ اتصال دائم مع رجال الدولة والحكام، ويتدخلن في السياسة وإدارة شئون الدولة بكافة مستوياتها. في عهد الدولة السلجوقية والعثمانية، خرجت منهن شخصيات كبيرة، وقمن بتربية قادة عظام.

رُزق أرطغرل وحليمة بثلاثة أبناء: غندوز، وصاوجي، وعثمان.

غندوز: الذي وُلد في القرب من خلاط تقريبًا عام (١٢٣٠) ميلادي تزوج من السيدة بورلا، وولدهم اسمه «آي دُوغْدُو» الذي استشهد عام (١٣٠٢) ميلادي في معركة قويون حصار، وانضم لجيش عثمان، وبعد فتح مدينة «أسكي شهر» منحه عثمان المنطقة، واستشهد غندوز في أحد المعارك عام (١٣٠٦م)، ودفن بجانب قبر المحارب تورغوت ألب وباقي المحاربين.

أما أخوه الآخر «صاروبتي» أو «صاوجي بك»، فولد قرابة عام (١٢٣٣م) في مدينة سوغوت، وتزوج من السيدة ملاك وابنه اسمه «بايكوجا أو بكخوخه» وانضم لجيش عثمان، واستشهد في معركة دومانيتش أو معركة التوائم عام (١٢٨٨م) التي تعد من أهم معارك العثمانيين، وانتصروا فيها، ودفن في نفس المنطقة التي دفنت فيها والدته هيماه ومانيتشو ابنه بايكوجا استشهد عام (١٢٨٧م)[1].

(١) الدولة العثمانية المجهولة (ص٦٠).

وباعتبار الرواية الأخرىٰ التي تخبر بموت صاوجي وهو عائدٌ إلىٰ أبيه لما أراد أن يستأذن السلطان علاء الدين السلجوقي ويلتمس منه مسكنًا له قبل دخولهم الأناضول[1]، فربما يكون أرطغرل قد سمىٰ ولدين بهذا الاسم أحدهما كان معه في رحلته إلىٰ الأناضول، ومات قبل المعركة وإقطاع سوغوت، والآخر ولد له في سوغوت فسماه علىٰ سميه السابق، أو أن يكون الذي أرسله رجلًا آخر كما وضحتُ سابقًا.

أما **عثمان**: فقد بُشر به والده في رؤيا في أثناء حمل زوجته، فرأىٰ قِدرًا كبيرًا من الماء يغلي علىٰ مَوقد الحطب، وكلما غلىٰ الماء أكثر كان يزداد ويَفيض علىٰ المكان برُمته دون أن يتناقص، حتىٰ أصبح كبحر عظيم يغطي الأصقاع الأربعة.

حين استيقظ صباحًا توسم الخير من منامه، ورغم ذلك بقي يشغل تفكيره، ولكنه لم يَبُح بهذا الحُلم لأحد، بانتظار لقاء كاتب السلطان السلجوقي الذي كان يذهب لزيارته بين الحين والآخر العلامة عبد العزيز المستوفي، حيث كان يجالسه لساعات طويلة،

---

(١) إبراهيم بك حليم: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مطبعة ديوان عموم الأوقاف – القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م، (ص٣٤، ٣٥)، أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق: أحمد حطيط، فهمي سعد، دار عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢م، (٣/ ٦، ٧).

ويتبادلان النقاش في مختلف الأمور، وقد سرد عليه الحُلم الذي لم يفارق ذهنه حال لقائه به، وبعد بُرهة من التفكير، نظر العلامة بوُدٍّ إلىٰ هذا الفارس الذي ترتسم علىٰ وجهه أمارات الشجاعة والأصالة، واحتضنه بمحبة وهو يبشّره: «البشرىٰ يا أرطغرل، سيكون المولود ذكرًا، وستتمكن سلالته من حكم العالم برمته»[1].

الميلاد:

في عام (١٢٥٨م - ٦٥٦هـ) عندما اقتحم هولاكو بغداد ودمرها، وأسقط راية المسلمين وتمزق العالم الإسلامي، وأصبحت الأمة في أضعف نقطة تصل إليها، وقُتل المسلمون وتشردوا، وفي اليوم نفسه ولد عثمان بن أرطغرل في مدينة سوغوت، ولم يعلم المغول أو العالم الأوروبي أن هذا المولود سوف يبعث الروح من جديد في الأمة، ويجدد الدين، ويؤسس دولة تتصدىٰ لكل الدول، وتصبح أقوىٰ إمبراطورية في تلك المرحلة.

قد كان الخطب عظيمًا والحدث جللًا، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط الله عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، سلالة أرطغرول، (ص٢٣).

مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية[1]، وليس هذا عجيبًا في أمر الله، فإن أقصىٰ نقطة من الضعف والانحطاط هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين لكن لا تدري بأي يدٍ سيضرب الله، يدك أم يد غيرك: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[محمد: ٣٨].

في يوم ١٣ فبراير[2] وفي أثناء سقوط بغداد في أيدي المغول وإحراقهم حضارة المسلمين، شهدت مدينة سوغوت عيدًا غير مسبوق حتىٰ ذلك التاريخ، فقد ذبحت الذبائح، ووضعت القدور علىٰ المواقد، وفاحت في الجوار رائحة أطعمة شهية لا يمكننا سوىٰ تخيل لذتها، وفرشت البسط علىٰ المروج الخضراء، وقدمت صواني الأرز المتبل بالزعفران، وصحون الفواكه والألبان، ومختلف المشروبات، بالإضافة إلىٰ اللحوم المشوية الموضوعة فوق الخبز الطازج، حيث نال الجميع صغارًا وكبارًا، نساءً ورجالًا نصيبهم من هذه الوليمة، وأصبحت ساحة المدينة

(١) الصلابي، الدكتور محمد علىٰ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولي، (ص٤٥).

(٢) التاريخ السري للإمبراطوريَّة العثمانيَّة: جوانب غير معروفة من حياة سلاطين بني عثمان، تأليف: مصطفىٰ أرمغان، ترجمة: مصطفىٰ حمزة، (الطبعة الأولىٰ). بيروت - لُبنان: الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، ص ١١.

تضِج بالحركة والنشاط، وأخذ فرسان القايي يتبارزون بالسيوف، ويتسابقون علىٰ ظهور الخيول، ويصيبون أبعد الأهداف بسهامهم، فيما العجائز يراقبون المشهد بعيون دامعة، ويرددون دون توقف «ما شاء الله»، وقد تم توزيع الهدايا علىٰ كل من اشترك في تلك المباريات، ذلك أن أرطغرل بك قد أعطىٰ أوامر حاسمة «لا يجب أن يعود أحد إلىٰ بيته حزينًا».

وقد كان منشرحًا أيَّما انشراح، مبتهجًا ابتهاجًا عظيمًا، ويُشرف علىٰ الاهتمام بضيوفه ويُوليهم جميعًا عناية خاصة، وكانت كل هذه الاحتفالات بسبب مولد ابنه عثمان، الذي سيؤسس من سوغوت سلطنة سيتردد صدىٰ عظمتها في العالم بأسره[1].

تربية عثمان:

نشأ عثمان وإخوانه في كنف والدهم أرطغرل، ووالدتهم حليمة، وإن كنا لمحنا في شخصية أرطغرل معالم القيادة والتربية، فالأم حليمة كانت مدرسة تربوية أيضًا، وهذا الدور الأكبر للأم[2]، فكان الوالدان يهتمان بأبنائهما وتربيتهم من الناحية الجسمانية والنفسية

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، سلالة أرطغرول، (ص٢٣).

(٢) بيَّن كورنيل (Cornell ١٩٨٣) في دراسته أن الأم هي أول مَن يكتشف أن طفلها موهوب، وإذا كان هناك خلافٌ بين الأبوين حول إمكانية أن يكون طفلهما موهوبًا، فإن الأب هو المتشكِّك في إطلاق هذه الصفة علىٰ الطفل.

والزوجية، ولكن عثمان كان يحمل صفات تشبه شخصية والده، وتميَّز عن إخوانه: «غوندوز، وصولجي» وهذه تعد من الفوارق الفردية بين الأبناء، وهنا يقع دور الأم والأب في اكتشاف قدرات أبنائهم، وتوزيع الأدوار فيما بينهم، و«**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1].

تميز عثمان بأن جَمَعَ مع الصفات القيادية -التي صقلت في ميادين الجهاد والمعارك في جانب والده- العلمَ والتصوف الرُّوحاني؛ لذا كلَّف أرطغرل مجموعة من رفاق دربه من المحاربين بتدريب ابنه عثمان علىٰ الروح الجهادية، وتعليمه الرماية وركوب الخيل واستعمال السيف، فتربىٰ تربية جهادية كما يصفه المؤرخ أحمد القرماني[2].

والأسرة تلعب دورًا كبيرًا في تنمية ورعاية قدرات أطفالها وزيادتها، بالشكل الذي يسمح لهم بالتعامل إبداعيًّا مع مشكلاتهم، لذا يجب علىٰ الآباء الذين يرغبون في أن يكون أبناؤهم مُبدِعين في العلم والفن والأدب -أن يتَّبعوا أسلوبًا معينًا في تربية أبنائهم؛ بحيث يقوم هذا الأسلوب علىٰ التماسك والدفء والقبول والحرية، وكذلك لا بد أن يعمل الآباء علىٰ رغبات أبنائهم

(١) حديث صحيح، رواه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٦٤٩).
(٢) القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، (ص١٣).

الموهوبين، وإعطائهم الفرصة لكي يشعروا بالثقة في أنفسهم وفي شخصياتهم، كما أن هؤلاء الآباء لا بد أن يحاولوا فهم المتطلبات السيكولوجية لأطفالهم، وإتاحة بيت أفضل لهم للتعلم الأمثل؛ حتىٰ يعطوا الفرصة لمواهبهم أن تظهر، ومن ثَم يستطيعون أن يوفِّروا لهم كل وسائل الرعاية والاهتمام.

ومن رحمة الله بالعبد أنه إذا مات لم تمُت معه أعماله، بل هي مستمرة وربما في ازدياد، باقية وإن فارق هو الحياة، ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[يس:١٢].

ولعلَّ من أعظم آثار الفرد مِنَّا أن يترك ولدًا صالحًا بعده، كما في الحديث الشريف، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ**»[1].

بعضنا يكتفي بحديث: «**أو ولد صالح يدعو له**»، ولا يلتفت إلىٰ هذه الرواية التي لم تكتفِ بالدعاء من الولد فحسب، بل جعلت

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٢)، وحسنه الألباني.

مجرد وجوده في الدنيا حسناتٍ تلحق بالآباء وهم في قبورهم، فالولد أعظم آثار أبيه إن كان صالحًا، فهو الذي أنبته، وإن أحسن فمن ثمرة تربيته.

لقد أحسن أرطغرل تربية ولده، فكانت سلالة مباركة، لقد زرع أرضًا طاهرة، فخرج نباتها طيبًا، ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا...**﴾ [الأعراف:٥٨].

عثمان في تكية أده بالي

إن رعاية الموهوبين تتطلب تضافر كافة المؤسسات التربوية من المجتمع، بَدْءًا من الأسرة والمدرسة، وامتدادًا إلىٰ كافة المؤسسات المَعْنِية بعملية التنشئة الاجتماعية؛ كالمؤسسات الدينية، والإعلامية، والأندية الرياضية، والجمعيات، والمؤسسات الخاصة.

ولما رأىٰ أرطغرل نجابة عثمان جعله يلتحق بتكية الشيخ أده بالي **Edebali**[1] أو كما يعربها البعض «أدب عالي»، وهو صديق

(١) هو عماد الدين مصطفىٰ بن إبراهيم بن إناج القرشهري، ولد بمدينة قرمان، رحل إلىٰ الشام ودرس بها الفقه والعلم، وبعد رجوعه تفرغ للتصوف منتسبًا للطريقة الوفائية المتفرعة من الشاذلية، حيث أنشأ له زاوية في مدينة بيله جك، وأصبح من رؤساء الآخيين في الأناضول، ويقال: إنه هو أول قاض ومفت في الدولة العثمانية، توفي بجوار زاويته عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، انظر: أحمد بن مصطفىٰ طاشكبري زاده، **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٥م): ٦-٧، كوندوز وأوزتورك، **الدولة العثمانية**: ٦٢-٦٣.

أرطغرل وكانت تربطهما علاقة متينة منذ أن جاء إلىٰ إتبوروني **Itbourouni**، (وهي قرية بالقرب من أسكي شهر[1]) حينما كان عثمان صغيرًا، فاشتهر بتقواه وعلمه.

وكانت زاويته في بيله جيك كخلية نحل، لا يتوقف العمل فيها مطلقًا، فكان لديه المئات من الطلبة الذين يرومون التزود من علومه ومعارفه، خلا الفقراء والمحتاجين الذين يطرقون بابه علىٰ الدوام، ولا يرد أيًّا منهم خائبًا، وقد خصص قطيع الماشية الضخم الذي تعود ملكيته للتكية لهذا الغرض نفسه.

وكان لديه طالبان من بين جميع الطلبة يولي تعليمهم عناية فائقة، ويتابعهم باهتمام بالغ، وكانا بالمقابل يتصفان بفطنة وذكاء غير مسبوقين، وكأن مجيئه إلىٰ بيله جيك واستقراره فيها، كان بغية تحضير هذين الطالبين لمناصب علىٰ غاية من الأهمية والسمو.

فأحدهما هو عثمان بن أرطغرل، والآخر هو (طورسون)؛ والذي سيصبح الفقيه والعلامة الشهير وسيخطب أول خطبة باسم الغازي عثمان مستقبلًا[2].

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٢.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، (ص٢٤).

وأوصىٰ أرطغرل غازي ابنَه عثمان بوصية طويلة قيّمة، يحثه فيها بضرورة الاهتمام بأولياء الله من العلماء وشيخه أده بالي، وهناك جزء صغير من تلك الوصية مكتوب الآن عند قبر أرطغرل وهو الجزء الذي يحثه فيه علىٰ عدم عصيان الشيخ، يقول فيها:

«انظر يا بني!
يمكن أن تؤذيني، ولكن لا تؤذِ الشيخ «أده بالي»!
فهو النور لعشيرتنا. ولا يُخطئ ميزانه قدر درهم!
كُن ضدي ولا تكن ضده..
فإنك لو كنت ضدي سأحزن وأتأذىٰ..
أما لو كنت ضده فإن عينيَّ لن تنظر إليك. وإن نظرتا فلن ترياك.
إن كلماتي ليست من أجل الشيخ «أده بالي»..
بل هي من أجلك أنت.
ولتعتبر مقالتي هذه وصية لك..»[1].

(١) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ترجمة: د. محمد حرب، ص ٣٠، دار الأرقم إستانبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

معلقة رخامية بمقبرة أرطغرل بمدينة سكود فيها جزء من وصيته
إلىٰ ابنه عثمان يوصيه فيها بعدم مخالفة شيخه «أده بالي»

التصق عثمان مع الشيخ أده بالي، وكان يلازمه حتىٰ إنه في بعض المرات ينام عنده في التكية التي تعد مكان الدرس، وكان عثمان لا يكَلّ من سماع السيرة النبوية الشريفة، ويُسر أيَّما سرور من سماع الشيخ وهو يسرد عليهم فتوحات الرسول الكريم وجهاده، ليتشرب كل خصلة من خصاله وأخلاقه السمحة[1].

وقد قام الشيخ أده بالي بتربية مجموعة الشباب المحيطين بعثمان غازي، وكان يدرك أن الشباب هم بذرة المستقبل، وأنه برعاية روح تلك البذرة يسهل اكتشاف المستقبل.

ومن وصايا الشيخ أده بالي التي يرددها علىٰ تلاميذه بين الحين والآخر، ومن بينهم الغازي عثمان:

«عليكم أن تحسنوا إلىٰ جميع الناس، سواء كانوا مسلمين أم كفرة، وأن تتحلوا بالعفو والتسامح إزاء الجميع، وبالاحترام والتقدير إزاء الكبار والعلماء، فكبار السن هم بركة قومهم. افعلوا كل ما تفعلونه لوجه الله، ولتكن أفعالكم مطابقةً لأقوالكم. لا تحيدوا عن طريق الحق والجهاد في سبيل الله، كونوا أوفياء صادقين مع من صادقكم، ولا تهموا للقيام بأمرٍ ما، دون أخذ المشورة من أهلها، واستعينوا بالصبر في قضاء حاجاتكم، فالوردة

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، (ص٢٤).

لا تُزهر قبل أوانها»[1].

كان الشيخ أده بالي يعمل علىٰ تنشئة عثمان الصغير، وكأنه كان مدركًا أنه سيؤسس دعائم أعظم الدول في المستقبل القريب، وكان موقنًا أنه لو نشأ علىٰ أسس سليمة، فستكون الدولة أيضًا سليمة البنيان، قوية، وعظيمة الشأن[2]. لذلك يعده البعض المؤسس المعنوي للدولة العثمانية، ولعدم وجود شيخ مثله في الإمارات الأخر، أزيلت تلك الإمارات عن مسرح التاريخ، ولكن الإمارة العثمانية قد تمكنت من أن تتحول إلىٰ دولة، ومن دولة إلىٰ دولة عالمية في فترة قصيرة[3].

ومن وصاياه:

«بُني! من الناس من يولد وقت الشفق ويموت في أذان المغرب. واعلم أن الدنيا ليست كبيرة كما تراها، واعلم أن كل الأسرار التي لم تفتح وكل ما لا تعرفه لن يظهر في ضوء النهار إلا بعدلك وفضلك».

«عليك أن تهتم بتعظيم الآباء والأمهات فالبركة مع الكبار، إن تفقد اعتقادك في تلك الدنيا تكن مثل صحراء جرداء بعد الاخضرار».

---

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان (ص٢٦).

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، (ص٢٤).

(٣) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ص ٣١.

«كُن صريحًا في كلامك، ولا تهتم بكل كلمة تقال. انظر، ولكن لا تتحدث بكل ما رأيته، واعلم ولكن لا تتكلم بكل ما علمته، ولا تقل إني رأيت، ولا تقل إني أعلم. زُر غبًّا تزدد حُبًا».

«ارحم ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالما بين جُهَّال».

«لا تخش من الجدال إذا كنت علىٰ حق. فاعلم أن الجيد من الخيل يقال له «جواد» واعلم أن الجيد من الفتيان يُقال له «مجنون»[1] ولتعلم أن أكبر انتصار هو معرفة النفس. والعدو هو نفسك، أما الصديق فهو من عرف نفسه»[2].

«وإذا جلس الإنسان مرة فإنه لن يتمكن من النهوض مرة أخرىٰ بسهولة. فالمرء لا يزال يجلس حتىٰ يصبح كأنه مُخدَّر فإذا تخدر بدأ يتحدث عبثًا، وهذا الحديث يتحول إلىٰ الغيبة، وإذا بدأت الغيبة فإن الأمر لن يفلح، ويكون الصديق عدوًا والعدو سَبعًا مُتوحشًا».

«واعلم أن قوة الإنسان تنفد في يوم من الأيام، ولكن العلم يُحيي. إن نور العلم يسري حتىٰ إلىٰ عيون غامضة وينيرها»[3].

---

(١) ربما يقصد أنه لن يحظىٰ بالمدح وإن كان في أجود حالاته، بل سيقابل حاله الجيد ذمًا وانتقاصًا من الناس.

(٢) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ص ٣٢-٣٣.

(٣) السابق ص ٣٣.

«ليس لنا حق في الوقوف أو الاستراحة؛ لأنه لا يوجد وقت لدينا، والمدة قليلة».

«الوحدة لمن يخاف. والفلَّاح الذي يعرف وقت الزرع في أرضه لا يستشير أحدًا ولو بقي وحده. يكفيه أن يعرف حينونة الزرع في الأرض».

«يجب أن يكون الحب أساس الدعوة. إنَّ الحب ينمو في الصمت، ولا يُحَب بالصيحة ولا يُحَب بمجرد الرؤية»[1].

***

قرد عثمان

لقد كبر عثمان وأصبح شابًّا يصطحبه أرطغرل معه في أسفاره وحملاته، وكان متوسط القامة، عريض المنكبين، أسمر البشرة واسع العينين، والقسم السفلي من جسده أطول من جذعه[2]، فكان بإمكانه لمس ركبتيه وهو يقف منتصبًا.

ويَحْتَفي الكتاب المشرقيون بجماله الشخصي، وبطوله العجيب وقوة ذراعه، بوصفه فارسًا غير مسبوق في مهارته وركوبه الرشيق.

---

(١) السابق ص ٣٤.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

وأضفىٰ عليه شعره الأسود فاحم اللون، بالإضافة إلىٰ لحيته وحاجبيه، لقَب «قَرَه **Kara**»، ويعني: «عثمان الأسود». كان لقب «قَرَه» -الذي كثيرًا ما سنجده في التاريخ التركي[1]- عندما يُطلق علىٰ شخص، فهو يشير إلىٰ أقصىٰ درجات الوسامة بالنسبة للرجل.

وكان زيه بسيطًا كمحاربي الإسلام الأوائل، فمثلهم ارتدىٰ عمامة من الكتان الأبيض الوافر، ملفوف حول مركز أحمر. وكان قفطانه أبيض فضفاضًا من لون واحد، وله أكمام متدلية طويلة ومفتوحة[2].

لكن الرسامين ألبسوا الغازي عثمان ما كان سلاطين العثمانيين يلبسونه في العصر الكلاسيكي، فلا تكاد تفرقه عن القانوني ومراد الثالث، مع أن العثمانيين الأوائل لم يستخدموا هذا النوع من الألبسة المزركشة، بل حتىٰ سادة الأناضول لم يلبسوها إلا بعد أن استقروا في القصور في القرن الرابع عشر[3].

---

(١) علىٰ سبيل المثال:

قره جه حصار Karadhissar «القلعة السوداء»، قره دينيس Kara-Denis «البحر الأسود»، قره مصطفىٰ «مصطفىٰ الأسود»، قره داغ Karadagh «الجبل الأسود»، قره سو Kara-Su «مياه سوداء».

(٢) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٥.

(٣) التاريخ السري للإمبراطوريَّة العُثمانيَّة ص ١٤.

الحب الأول

حرص عثمان الشاب علىٰ حضور دروس الشيخ «أده بالي» كلما سنحت له الفرصة، ولكنه في الفترة الأخيرة بات شارد الذهن، يتجول ممتطيًا حصانه لساعات طويلة؛ لأن «مال خاتون» ابنة الشيخ هي السبب في كل هذه التغيرات التي طرأت علىٰ الشاب. كانت هذه الشابة التي أسرت قلبه، تمتلك كافة مقومات حسن الخَلق والخُلق. ولم يحتمل قره عثمان العاشق الصبر أكثر من ذلك، وذهب لطلب يد الفتاة من والدها الذي كان بمثابة الأب الروحي له، والذي كان متأكدًا من موافقته. لكنه لم يحصل علىٰ الجواب الذي كان يتوقعه. حيث أخبره الشيخ: «بأنه ليس الوقت المناسب»، رافضًا طلبه. وهذا ما تسبب في صدمة كبيرة للشاب وحزن عظيم، ولكنه لم يكن يملك سوىٰ الإذعان أمام رغبة الشيخ الجليل. ورغم أن عثمان ابن كبير القوم، وطلباته كانت مجابة علىٰ الدوام، فهل كان هذا الرفض امتحانًا عمليًا من الشيخ لاختبار قدرات الشاب علىٰ التحكم بأهواء نفسه والتغلب عليها[1]؟

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

من حُب إلى حَرب

تأثر عثمان بهذا الرفض من شيخه أده بالي مما حدا به أن يلتمس المواساة لخيبة أمله في مجتمع أصدقائه وجيرانه ليصف لهم بإلهام محب، جمال مال خاتون. وتحدث ببلاغة حول هذا الموضوع مع الحاكم الشاب لأسكي شهر، فوقع المُسْتَمِع في حب «مال خاتون» بناءً علىٰ ما سمعه[1]، لكنه أخبره بأنه سيهتم بالأمر، وسيتوسط لدىٰ الشيخ أده بالي، الذي كان حينها يقطن قرية إيت بونرو الواقعة تحت نفوذ سلطانه، لكنه انتوىٰ أن يخطبها لنفسه لا لصديقه عثمان؛ ليزداد نفوذًا ومكانة بمصاهرة هذا العلامة الجليل، فذهب إلىٰ والدها وطلب يدها لنفسه، فرفضه كذلك أده بالي، ولكن خوفًا من انتقامه، انتقل الرجل المُسِن من جوار أسكي شهر إلىٰ مأوىٰ قريب من صديقه أرطغرل؛ قائلًا لأهله: «لا تخاطر بالمرور فوق جسر يحكمه دنيء النفس، حتىٰ لا تجتاحك أمواجه الغادرة»، فأصبح حاكم أسكي شهر يبغض عثمان كخصم له[2].

---

(١) وهذا من مفاسد وصف النساء للرجال، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**لا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَتَنْعَتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا**» رواه البخاري (٥٢٤٠)، قال القابسي: الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور فيفضي ذلك إلىٰ تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة. [فتح الباري ٩ / ٣٣٨] فكيف إذا كان الوصف من وإلىٰ الرجال؟!

(٢) شيمشيرغيل، مرجع سابق- إدوارد كريسي، تاريخ الأتراك العثمانيين، ص٣٢-٣٣.

لم يدرك أده بالي أن بانتقاله إلىٰ ممتلكات أرطغرل سيجلب علىٰ نفسه غضب الحاكم، ورغبته بالانتقام منه، الذي تحول إلىٰ رغبة في الانتقام من عثمان والقضاء عليه تحت تأثير مشاعر الغيرة والحقد، وحين سمع بأن عثمان وشقيقه غوندوز آلب يقيمان مع مجموعة من أصدقائهما في حِصن «إين أَوني» اصطحب جنوده ومعه حليفه ميخال ذو اللحية الهزيلة(١)، واتجهوا لمحاصرة الحصن. وأرسل رجاله للحاكم «إين أَوني» مطالبًا بتسليم عثمان، لكنه رفض ارتكاب مثل هذا الانتهاك لقواعد الضيافة. وفيما كان الحاكم ورجاله يتناقشون حول تسليم عثمان أسرع الأخوان وأصدقاؤهما بمغادرة الحصن علىٰ وجه السرعة متجهين نحو سوغوت، وقد تفاجأ حاكم أسكي شهر وجنوده من هذا الخروج المفاجئ لعثمان ورجاله، وبدأت ملاحقة حامية الوطيس بين

---

(١) Michael of the Peaked Beard، الحاكم البيزنطي لمدينة خرنكيا Khirenkia المُحَصَّنَة علىٰ سفح الأوليمب Olympus في فريجيا هي «خَرمَنْجِك Kharmandjik»، الواقعة جنوبي بورصة، انظر: موستراس، **القاموس الجغرافي**: ٢٥٨.

وذُكر في المصادر العثمانية «كوسه ميخال»، انظر علىٰ سبيل المثال: منجم باشي أحمد ده ده، **جامع الدول**، دراسة وتحقيق غسان بن علي الرملي، رسالة دكتوراه غير منشورة (مكة المكرمة: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرىٰ، ١٩٩٦-١٩٩٧م): مج. ١: ٢١٩؛ نامق كمال، **عثمانلي تاريخي** (إستانبول، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م): مج. ١: ٦٤ [من تعليقات د. أحمد سالم مترجم «تاريخ الأتراك العثمانيين» لإدوارد كريسي ، انظر: هامش ص٣٣].

الطرفين، وفيما كان عثمان ورفاقه يحاولون زيادة المسافة بينهم وبين مطارديهم، كانوا من جهة أخرىٰ يحاولون الاستنجاد بدعم الموالين لهم ممن يمرون بهم علىٰ الطريق. وحين أدرك عثمان أن قوة مطارديه بدأت تتبعثر وتتشتت مع مواصلة المطاردة، عاد مع أصدقائه في هجوم مفاجئ ثان، وبالكاد تمكن حاكم أسكي شهر ورجاله من الفرار والنجاة من الكمين وذلك بعد عراك قاسٍ بين الطرفين.

ولكن كوسه ميخال لم يتمكن من النجاة، حيث تم إلقاء القبض عليه. وأُحضر للمثول بين يدي عثمان، لكن عثمان قرر العفو عنه متذكرًا كلمات شيخه أده بالي: «العفو زكاة علىٰ المنتصرين» فأعلن لأسيره أنه حر، يستطيع المغادرة متىٰ شاء.

وحين رأىٰ كوسه ميخال أن الرجل الذي كان يلاحقه لقتله، قد عفا عنه وأعتقه، أخذ العهد علىٰ مصادقته، وقال له: «من الآن فصاعدًا، سأكون أكبر عون لك، وأقرب أصدقائك إليك، وأرجو أن تصدق كلماتي هذه..»[1].

***

(١) شيمشيرغيل، مرجع سابق. تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٣

زواج عثمان

انتصر عثمان علىٰ خصمه في هذه المواجهة التي حدثت بإين أَوني، وحصل علىٰ صديق قَيّم وهو كوسه ميخال، لكنه لم يستطع حتىٰ ذلك الوقت الحصول علىٰ عذراء قلبه.

ومن الواضح لنا أن هذه الحادثة كانت في أيام أرطغرل، ويبدو أن عثمان أبعد فكرة زواجه من بنت أده بالي عن مخيلته، وفي وقت قليل تزوج عثمان من «رابعة خاتون» ابنة الوزير السلجوقي عمر بن عبد العزيز بك، التي لا تذكر المصادر التاريخية مزيد تفاصيل عنها، لكن تعدد أسماء زوجات عثمان يرجح أنه تزوج علىٰ الأقل زوجتين، وكان زواجه منها في عام (١٢٨٠م)[١]، أي قبل وفاة أرطغرل، مما يشير إلىٰ اعتماد تلك الرواية؛ لأنه التصرف الأحكم بعد شيوع خبر حب ابنة الشيخ أده بالي ورفضه لعثمان والمعركة التي دارت بسبب ذلك، وكذلك أنها من بيت سلجوقي قريب جدًّا من العلاقة التي توطدت بين السلاجقة وأرطغرل مؤخرًا.

وفي المقابل عاد الشاب عثمان إلىٰ توطيد عرىٰ العلاقة بينه وبين شيخه كما في السابق، وكان يعامله بكل احترام وتقدير وكأنه لم

(١) الدولة العثمانية المجهولة، (ص٥٨).

يطلب يد ابنته من قبل، وكذلك لم يرفضه أده بالي وجعله يتردد عليه في منزله بل ويبيت عنده كما كان من قبل، ووفق لعادتهم لا يمكن لدار الضيافة أن تَرْفُضَ استضافة حتىٰ الخاطب الذي رُفِضَت خِطْبَته، وظل علىٰ هذه الحال تقريبًا لمدة عامين[1].

وفاة أرطغرل

بعد حياةٍ طويلةٍ من الجهاد والفتوحات كبِر أرطغرل فلم تستطع عظامه أن تحمله؛ فقام أبناؤه بمواصلة مسيرة الجهاد وتحمل المسئولية الجهادية، فبرز ابنه عثمان في ميادين الجهاد، وتوفي أرطغرل عام ١٢٨١م عن عمرٍ يناهز التسعين، ودفن في قصبة سوغت التي استولىٰ عليها من البيزنطيين واتخذها قاعدة له[2].

وتضم الدولة التي خلّفها أرطغرل بك، بالنسبة للتقسيمات الإدارية الحالية، بصورة تقريبية: سوغت وبوزيوك التابعة لولاية بيله جك، اقضية دومانج التابعة لولاية كوتاهية، وناحية يارمجه الواقعة بين نهري بورسك وسقاريا التابعة لولاية اسكي شهر،

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٣

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ١/ ٨٦، ٨٧. محمود محمد الحويري: تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطىٰ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات – القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م، ص٣٧.

والقسم الشمالي من اسكي شهر إذا ما تركنا اسكي شهر في الخارج[1].

وكان أرطغرل في كل حياته تابعًا لسلطان السلاجقة، حتىٰ بعد وفاة علاء الدين كَيْقُبَاذ، الذي كان قويًّا قادرًا، لم يُفكِّر أرطغرل في أي استقلالية بإقطاعيته، مع أن السلاطين الذين خَلَفُوا علاء الدين كَيْقُبَاذ كانوا في غاية الضعف، ولم يكن لهم من السلطة إلا الاسم، ومع ذلك ظل أرطغرل علىٰ ولائه لهم، وهذا دليل علىٰ اتزانه وعدم رعونته؛ لأن أي استقلالية في هذا الوقت المبكر ستلفت الأنظار إليه، وإلىٰ خطورة وأهمية المنطقة التي يتزعمها، فوق أنه لم يُرد أن يشق عصا الطاعة ويُفَرِّق المسلمين، فكان مثالًا للقائد الحكيم الذي يُقَدِّر قوته، ولا يهدرها فيما لا يفيد.

ولكون أرطغرل كان تابعًا طوال حياته لسلطان السلاجقة فإن الدولة التي أسسها أولاده بعد ذلك لم تنسب إليه قط، ولم تتردد مطلقًا كلمة «الدولة الأرطغرلية»، مع أنه أبو عثمان المؤسس الفعلي للدولة العثمانية؛ ولكن يتفق الجميع علىٰ أن أرطغرل كان تابعًا ولم يسعَ للانفصال قط.

***

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٨٦، ٨٧).

عثمان يرفض الإمارة

ظهرت شجاعة عثمان وحنكته في عدد من المواقف، حين كان والده لا يزال حيًّا، والجرأة التي يتحلىٰ بها كانت سببًا في ذيوع شهرته بين القاصي والداني، مما جعل كبار القبيلة ورجالاتها، أن يسلموا زمام القيادة بعد أرطغرل لابنه عثمان رغم أنه كان أصغرهم سنًّا[1] في نحو الرابعة والعشرين ربيعًا.

لكن عثمان قابل هذا الأمر بالرفض في البداية، فقال: «إنني أعتزل الإمارة ما دام السلاجقة هم الذين يحكمون»[2]، فكان علىٰ سيرة والده في تجنب آفة كفران النعمة، وبتجنبهم هذا بارك الله في أعمارهم وأملاكهم ومُلكم كما يقول الفردوسي[3]. وليس بعيدًا ذلك، فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»[4].

وربما مع هذا الرفض من عثمان آلت زعامة القبيلة إلىٰ أحد أعمامه

---

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٢) تواريخ آل عثمان ص ٨٥.

(٣) انظر: تواريخ آل عثمان ص ٨٦.

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(دوندار – گندز ألب)، فيروي السيِّد مُحمَّد بن إبراهيم الخُراساني الشهير باسم «الحاج بكطاش ولي» في كتابه: «ولايت نامه»، أنَّ من تولّىٰ إمارة القبيلة بعد وفاة أرطُغرُل كان عم عُثمان الأصغر المُسمَّىٰ «گندز ألب»، وفي تلك الفترة كان عُثمان وفرسان القبيلة قد بدءوا بِتنظيم هجمات علىٰ الأراضي البيزنطيَّة في المناطق المجاورة لِسوغوت مثل ياري حصار وبيله جك وإينه‌گول وإزنيك. وردًّا علىٰ تلك الهجمات أرسل «تكفور»، وهو عامل الروم علىٰ بورصه، أرسل الرُسل إلىٰ السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث ليشتكي من الهجمات. فردَّ السُلطان بأن أمر گندز ألب بإحضار ابن أخيه الشاب لِيمثل أمامه، فقبض عليه وأرسله إلىٰ قونية. ووفقًا لِهذه الرواية فإنَّ السلطان كان مُعجبًا بعُثمان وشجاعته وإقدامه، فأرسله إلىٰ الحاج بكطاش ولي الذي استقبله بحفاوة، وأمر بإطلاقه قائلًا: «أنا أنتظر مثله مُنذُ سنوات»، ولفَّ رأسه بقماشة مشايخ الصوفيَّة وصار كأنه أُلبس تاجًا، وأرسل معه إلىٰ قونية رسالة إلىٰ السلطان يمتدحه فيها ويطلب منه إقراره علىٰ زعامة قبيلة قايي، وبعد قراءة السلطان السلجوقي للرسالة أقرَّ عثمان علىٰ إمارة أبيه[1].

(١) ولايت نامه: گنجينه فرهنگ وعقايد علوىٰ – إيران: انتشارات آراس. ص ٢٢١ – ٢٢٦.

ووفقًا لهذه الرواية سيكون هذا الإقرار علىٰ الزعامة فيما بعد عام ١٢٩٨م؛ لأنه عهد كيقباد الثالث الذي حكم الدولة السلجوقية من ذلك الوقت[١]، ولا يمكننا الحكم علىٰ دقة هذه الرواية التي لم ترد إلا في المصادر البكتاشية، ولم يتم تأكيدها عبر مصدر مستقل، كما أن هذه الرواية لا تتمتع بتأييد كبير من غالبية الباحثين، إلا أن بعض المصادر ستكشف لنا عن توتر حدث بين عثمان وعمه دوندار فيما بعد تجعلنا نستأنس بها في الكشف عن سبب ذلك، وإن كان لم يرد في كتاب الحاج بكطاش أي ذكر لِعلاقة عُثمان بِگندز ألب بعد ذلك.

إضافة إلىٰ ذلك فإن عثمان في هذه المرحلة لم يرفض الإمارة فحسب، بل كان منضمًّا إلىٰ إمارة «أبناء جوبان» علىٰ حدود الدولة البيزنطية، والتي كانت تقود عمليات الغزو والجهاد في منطقة «قسطموني» وحتىٰ نهر «سقاريا»، ليكون أحد أتباعها في غزوها ضد البيزنطيين، هذا وإن لم يَرد في المصادر العثمانية التي كتبت بعد قيام الدولة بسنوات كثيرة، لكنه وُثق من أحد شهود عيان هذه الفترة المبكرة وهو المؤرخ البيزنطي باتشميرز **Pachimeres** المعاصر لتلك الفترة[٢].

---

(١) تاريخ سلاجقة الروم، محمد سهيل طقوش، ص ٣٣٦، دار النفائس ٢٠٠٢م.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة ص ٨٤-٨٥، د. سيد محمد السيد محمود، مكتبة الآداب، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٧م.

ووفقًا لذلك فإننا نرىٰ أن عثمان لم تشغله الزعامة أو الإمارة، لكنه نذر نفسه للجهاد في سبيل الله، أو بمصطلحهم: «الغزو»، لذا عرفه التاريخ بعثمان غازي، وهذا ملمح مهم في سيرته، فلن تخلو السنوات القادمة من شن هجمات ودخول معارك وفتح حصون في الدولة البيزنطية.

الحُلم المقدس

في ذات يوم كان عثمان في ضيافة الشيخ أده بالي فاضجع ونام، فرأىٰ نفسه ومضيفه مضطجعين بالقرب من بعضهما البعض، حيث صعد من صدر أده بالي بَدْرٌ كامل، مَالَ نحو صدر عثمان ليستقر فيه، وتنقطع رؤيته. ومن ثم نبتت شجرة حَسَنَة إلىٰ الأعلىٰ، واستمرت في النمو بقوتها وجمالها أكثر فأكثر، ولا تزال تُلقي بخضرة فروعها وأغصانها ظِلالًا أوفر فأوفر، حتىٰ غَشِيت الأفق القصيّ لثلاثة أجزاء من العالم. وانتصبت تحت الشجرة أربعة جبال، أدرك أنها جبال القوقاز وأطلس وطوروس وهايموس **Haemus**[1]. وكانت هذه الجبال تمثل الأعمدة الأربعة التي بدت

(١) هي جبال البلقان، تلك السلسلة الجبلية التي تبدأ من مقدونيا العليا، وتمتد شرقًا حتىٰ البحر الأسود، فاصلة بلغاريا عن منطقة تراقيا القديمة، انظر: موستراس، **القاموس الجغرافي**: ١٤٢ (المترجم د. أحمد سالم، «تاريخ الأتراك العثمانيين»).

أنها تُدَعِّم قبة ورق وغصون الشجرة المقدسة، التي صارت الآن تخيم علىٰ الأرض. ومن جذور الشجرة تفجرت أربعة أنهار، هي دجلة والفرات والدانوب والنيل، تسير علىٰ مياهها السفن العالية والمراكب لا تُعَد ولا تُحْصىٰ، والحقول الغزيرة في موسم الحصاد، وسفوح الجبال مغطاة بالغابات، ومن هناك تنبع في خضم تهلل وخصوبة وفيرة ينابيع وجداول يتصاعد خرير مائها من خلال غابة من أشجار السرو والورد، وفي الوديان تتلألأ المدن الفخمة بقبابها وقبيباتها، وأهراماتها ومسلاتها، ومآذنها وأبراجها، يتألق الهلال علىٰ قممها، ومن شرفاتها انطلقت أصوات الأذان مختلطةً بأصوات حُلْوَة لتغريد آلاف البلابل وثرثرة الببغاوات التي لا تعد ولا تحصىٰ من كل لون، وكل أنواع الطيور المُغَرِّدة. وصدحت تلك الأسراب المُجَنَّحَة وحَلَّقت تدور تحت سقف العيش الجديد من الأغصان المتشابكة لتلك الشجرة المهيمنة علىٰ كل شيء. واستحالت كل ورقة من أوراق هذه الشجرة سَيْفًا، وفجأة هبت رياح عظيمة حَوَّلَت حدود سيوف هذه الأوراق نحو مدن مختلفة من العالم، ولكن كانت بصفة خاصة تتجه ناحية القسطنطينية. وقعت تلك المدينة عند ملتقىٰ بحرين وبرين، فبدت جوهرة بين ياقوتتين زرقاوين وزمردتين، لتشكل أثمن حجر في

خاتم إمبراطورية عالمية. واعْتَقَدَ عثمان أنه كان يَضَعُ هذا الخاتم المُتَخَيَّل في إصبعه حينما استيقظ[1].

في الصباح روىٰ عثمان حلمه لشيخه، فبشره الشيخ الجليل قائلًا: «إنها البشارة يا عثمان! فقد منّ الله عليك وعلىٰ سلالتك من بعدك بالمجد والسلطنة، وسيصبح العالم برمته تحت حماية أبنائك وذريتك، وستغدو ابنتي مال خاتون زوجة لك»[2].

يُولِي الكُتَّابُ العثمانيون اهتمامًا كبيرًا لهذا المنام الذي رآه مؤسس إمبراطوريتهم، وقد شكك البعض في هذا المنام وقال بأنه لا بد أن يكون موضوعًا كما يضع المؤرخون مثل هذه الأحلام لتعليل ظهور وتقدم كل دولة سواء كان في ممالك الشرق أو

(١) تواريخ آل عثمان، ص ١٠٦، وبشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ١/ ٨٨. وتاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي ص٣٤، وقال المرتجم (د. أحمد سالم) في تعليقه: انظر: Von Hammer, vol. i., p. 49. يروي مؤلف "أناضول Anadol" هذا المنام، ويبدي ملاحظات حول الجزء المتعلق بالقسطنطينية:- «هذه الحلقة، القسطنطينية، قد سقطت في يد حفيد عثمان بك، السلطان محمد الثاني؛ ووضعت أساس الإمبراطورية العثمانية. وهي في الواقع تُعَد مكانًا لتجمع العديد من الأمم، فالرمز التنبؤي لأسراب الطيور الأجنبية المتجمعة تحت الخيمة العثمانية قد تم إدراكه تمامًا. وبالنسبة لعدد سكانها البالغ خمسة وثلاثين مليون نسمة، كان هناك ما يزيد عن سبعة ملايين سلافي، وأربعة ملايين ادَّعَوا الأصل الروماني، ومليونين يؤكدون أصولهم اليونانية، وما يقرب من خمسة ملايين عربي، ومليونين ونصف من الأرمن، وخمسمائة ألف ألباني، ومليونًا من الأكراد». – "Anadol," p. 45 .

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق. وانظر: تواريخ آل عثمان ص ١٠٦، وبشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ١/ ٨٨.

الغرب[1]، لكن ورود هذا المنام في المصادر العثمانية، يعطينا احتمال أن يكون له أصل، ربما طرأ عليه بعض المبالغات الأدبية والإضافات الشعبية الأسطورية عبر الزمان، لكنه قد يكون حدث بشكل ما، خصوصًا أن الصوفية يولون المنامات والرؤىٰ اهتمامًا بالغًا يصل عند بعضهم إلىٰ مرتبة التشريع[2].

الزواج السعيد

لم يَعُد الشيخ المُسِن يعارض زواج عثمان بابنته، بل صار متحمسًا لذلك مستبشرًا بتلك الرؤيا أن يكون لنسلهما السلطان والملك. فتزوجا علىٰ يد الدرويش الورع طورسون، أحد مريدي أده بالي. تعهد عثمان بإعطاء الشيخ المسئول مسكنًا بالقرب من المسجد، علىٰ ضفة النهر. وعندما أصبح عثمان أميرًا مستقلًا، بنىٰ تكية للدرويش، وأنعم عليه بسخاء بالقرىٰ والأراضي التي ظلت لقرون في حوزة عائلة طورسون[3].

وأخيرًا تحقق حُلم عثمان ونال قمره المتيم به، فتزوج مال خاتون بنت الشيخ أده بالي، وفي بعض المصادر ورد اسمها رابعة بالا

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص: ١١٦) طقوش، تاريخ العثمانيين، هامش ص ٢٧.
(٢) طالع في ذلك كتاب «أصول بلا أصول» للدكتور محمد إسماعيل المقدم.
(٣) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٥

خاتون، أطلق عليها بعض المؤرخين العثمانيين «قميرية **Kameriye**»، ويعني: «القمر الجميل».

ونال عثمان شرف مصاهرة الشيخ أده بالي الذي تذكر عدة من الروايات أنه كان من عترة رسول الله ﷺ ولهذا نال بنو عثمان الشرف من ناحية الأم من هذا الجانب؛ لأنهم بذلك وصلوا بالسلسلة من ناحية الأم إلىٰ النبي ﷺ[1].

أولاد عثمان:

أنجب عثمان من مال خاتون ابنه أورخان الذي سيحكم من بعده، والبعض ينسبه إلىٰ زوجته الأولىٰ، ولكن المشهور في المصادر أنه ابن مال خاتون ابنة الشيخ أده بالي، واختلفوا في تعيين سنة مولده، والمشهور أنه ولد سنة ١٢٨١م[2]، لكن هذا التوقيت يتنافىٰ مع ما سبق من سَير القصة، فغالبًا عثمان تزوج مال خاتون في حوالي سنة ١٢٨٣م، مما يرجح أن أورخان وُلد بعد هذا الوقت فيجعلنا نقبل الروايتين اللتين تشيران إلىٰ سنتي ١٢٨٤م، أو ١٢٨٨م[3]، والمصادر تشير إلىٰ وجود أخٍ أكبر لأورخان هو علاء الدين باشا،

(١) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ترجمة: د. محمد حرب، ص ٣٠، دار الأرقم إستانبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

(٢) الدولة العثمانية المجهولة (ص٦٣).

(٣) الدولة العثمانية المجهولة (ص٦٣).

وتخبر بأنه ابن «مال خاتون» أيضًا[1]، فكونه من نفس الأم وهو الأكبر يجعلنا نميل إلىٰ أن أورخان وُلد في عام ١٢٨٨م وهو الذي اختاره الأستاذ الدكتور الصفصافي أحمد القطوري أستاذ اللغة التركية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس[2].

وكان علاء الدين شغوفًا بالعلم محبًّا للعزلة وسيكون له إسهامات مهمة في عهد أخيه أورخان.

أما أولاد عثمان عدا علاء الدين وأورخان، فهم: فاطمة خاتون، وصاوجي بك، وملك بك، وحامد بك، وبازارلي بك، وجوبان بك[3]، ولا نعلم عن حياتهم الكثير ومن الوارد أن يكون بعضهم من زوجته الأولىٰ والبعض الآخر من «مال خاتون».

***

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» لحسين خوجه، ١/ ٨٨.

(٢) انظر مقالة: «رجل من صنَّاع التاريخ، أورخان غازي» المنشور في مجلة «حراء» التركية، السنة الثالثة العدد ١٢ (يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٨، ص٢٧.

(٣) الدولة العثمانية المجهولة (ص٦٠).

عثمان غازيًا

علىٰ الرغم من أن عثمان لم يستلم بعد زعامة القبيلة فقد كان له شأن عظيم فيها ويعتبر في هذه الفترة أحد قادتها وأراد أن يواصل نهج والده أرطغرل، وحاول كل جهده أن يتبع سياسة مسالمة مع جيرانه من ولاة الروم البيزنطيين. وكان من عادته حين خروجهم إلىٰ المصايف، أن يسلم كل ما بحوزته لوالي بيله جيك، وحين يعود مع قدوم الشتاء إلىٰ سوغوت، يغدق عليه بالهدايا والعطاء. وفي الوقت الذي استطاع فيه كسب صداقة ولاة كل من «بيله جيك» و«ويَارْحِصار» و«خَرْمَان كايا»، لم يكن خافيًا عليه أو علىٰ أحد عداوة «آيا نيقولا» والي إِيناكُول[1] للأتراك عامة.

موقعة إيكيزجا (التوائم):

كان «نيقولا» يعترض طريقهم في أثناء الذهاب والعودة من المصايف طلبًا للمال، لذا كانت تنشأ بين الطرفين مناوشات علىٰ الدوام. ومع تزايد هذه الاعتداءات، تباحث عثمان مع رجالات والده ورفاق سلاحه؛ «آكْجَا كُوسا»، و«عبد الرحمن غازي»، ومع أقرانه أيضًا وهم: «كُونُور آلب» و«تُورْغُوت آلب» و«أيْكُوت آلب»،

(١) منطقة تابعة لمحافظة بورصة التركية.

فتوصل الجميع إلىٰ قرار فتح إيناكول.

ولكن «آيا نيقولا» الذي سمع بنية الغازي عثمان الهجوم عليه، قام مع قواته بنصب كمين لهم عند إحدىٰ ممرات جبال الأرمن، وحين بلغ عثمان المكان مع فرسانه السبعين، هاجمهم نيقولا وجنوده، وجرت معركة حامية الوطيس بين الطرفين.

وتمكن عثمان وفرسانه من النجاة من هذا الكمين، ولكن «باي خوجا» ابن «صاروبتي» شقيق عثمان قد استشهد في أثناء المعركة، وذلك في العام ١٢٨٥م.

كان حُزن عثمان علىٰ فقدان ابن أخيه شديدًا، وقد أصرَّ علىٰ مواجهة نيقولا والي إيناكول والأخذ بثأره في أقرب فرصة. وبغرض تعزيز موقعه، قام في السنة التي تلتها (١٢٨٦م) بشن هجوم ليلي مفاجئ علىٰ كُولاجاحِصار[1] القريبة جدًّا من إيناكول، فاستولىٰ عليها.

ولأن نيقولا كان يدرك بأنه غير قادر علىٰ التصدي لعثمان وحده، فقد اتفق مع والي «قَرَاجَه حِصار» وشنت القوات المتحالفة هجومًا علىٰ الغازي عثمان بغرض معاقبته. حيث التقىٰ الطرفان في مكان يدعىٰ إيكزجا بالتركية: (**İkizce**) ومعناها التوائم، وكانت

(١) مدينة تابعة لمحافظة بالك إسير التركية.

بالقرب من دومانيتش (**Domaniç**).

ورغم أنه انتصر في المعركة، ولكن فقد هذه المرة شقيقه «صاروبتي». وفي المقابل فقد كان لاتوس قائد جيش التحالف وشقيق والي «قَرَاجَه حِصار» من بين القتلىٰ وذلك في العام ١٢٨٧م، وقد أُخذ جثمان «صاروبتي»[١] إلىٰ سوغوت ليدفن إلىٰ جوار والده الغازي أرطغرل[٢].

فتح قَرَاجَه حِصار:

ومع هذا النصر الذي حققه الغازي عثمان علىٰ ولاة الروم في موقعة إيكزجا، زاد نفوذه في المنطقة، وكان ينوي أن يرد الصاع لوالي قَرَاجَه حِصار، الذي لم يكتفِ بالتحالف مع نيقولا في معركته، بل كان يظهر العداء المستمر لهم في كل فرصة ممكنة. ورغم أن الوالي قد خمن نيَّات عثمان وتحالف مع والي يَارْحِصار لمساعدته، ولكنه لم يحقق غايته في النجاة من العقاب، فبعد حصار طويل، تمكن عثمان من الاستيلاء علىٰ قلعته وذلك عام ١٢٨٨م.

---

(١) وقيل «غندوز»، كما في «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩١، و «تواريخ ملوك آل عثمان – من كتاب فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار»، حاجي خليفة، ص ١٣٤، وهذا القول قد يحل إشكال الرواية التي تذكر أن «صاروبتي» مات وهو في طريقه إلىٰ أرطغرل بعد أن استأذن السلطان السلجوقي وطلب منه مكانًا ليستقروا به. راجع ص: ٦٧– ٦٨.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

وبعد السيطرة علىٰ قَرَاجَه حِصار، تم تحويل الكنيسة الموجودة في قلعتها إلىٰ جامع، وكانت تلك الكنيسة الأولىٰ التي يتم تحويلها إلىٰ مسجد في التاريخ العثماني[1].

(١) إنَّ هذا التحويل للكنيسة يحمل الكثير من التساؤلات عند البعض خصوصًا ما كان فيما بعد في زمن محمد الفاتح وأشهره تحويل كنيسة آيا صوفيا، ويرىٰ بعضهم أنَّ هذا مخالفٌ لشريعة الإسلام؛ لأنَّ عمر بن الخطاب ﷺ لم يفعله عندما فتح القدس، ولم يُحوِّل كنيسة القيامة إلىٰ مسجد!

لكن الأمر يحتاج إلىٰ شيءٍ من التفصيل، فقد فرَّقت الشريعة الإسلاميَّة بين البلاد التي تُفْتَح صلحًا والبلاد التي تُفْتَح عنوة؛ فالبلاد المفتوحة صلحًا -كالقدس- لا تُمس كنائسها ومعابدها سواء بالهدم وما في حكمه من تحويل وإسكان وهذا محل اتفاق بين الأئمة، ولهذا لم يكن جائزًا لعمر بن الخطاب ﷺ أن يُحَوِّل كنيسة القيامة أو غيرها إلىٰ مسجد، أمَّا البلاد التي تُفْتَح عنوة -أي بالحرب- ، فإنَّ المسلمين يملكون ما فيها، ومنها الكنائس، ولكن اختلف الأئمة في هل يجب هدمها أم لا، فيرىٰ الحنفية والمالكية ورواية عند الشافعية أنه لا يجب هدمها، بينما أكثر الحنابلة والأصح عند الشافعية ورأيٌّ بعض المالكية أنه يجب الهدم.[الموسوعة الفقهية الكويتية: ٧/ ١٢٩].

ومحصلة الخلاف أنه يجوز الهدم ولم يقل أحد بتحريمه، قال ابن تيمية: «وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ آثَارُ كَنِيسَةٍ قَدِيمَةٍ بِبَرِّ الشَّامِ فَإِنَّ بَرَّ الشَّامِ فَتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ عَنْوَةً وَمَلَكُوا تِلْكَ الْكَنَائِسَ؛ وَجَازَ لَهُمْ تَخْرِيبُهَا بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي وُجُوبِ تَخْرِيبِهَا»[مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٦٤٧]، وأرجع ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك إلىٰ المصلحة التي يراها الحاكم المسلم وفق الحاجة، فقال: «فَيَنْظُرُ الْإِمَامُ فِي الْمَصْلَحَةِ: فَإِنْ كَانُوا قَدْ قَلُّوا وَالْكَنَائِسُ كَثِيرَةٌ أَخَذَ مِنْهُمْ أَكْثَرَهَا، وَكَذَلِكَ مَا كَانَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ مَضَرَّةٌ فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ أَيْضًا، وَمَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إلَىٰ أَخْذِهِ أُخِذَ أَيْضًا.
وَأَمَّا إذَا كَانُوا كَثِيرِينَ فِي قَرْيَةٍ وَلَهُمْ كَنِيسَةٌ قَدِيمَةٌ لَا حَاجَةَ إلَىٰ أَخْذِهَا وَلَا مَصْلَحَةَ فِيهِ، فَالَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُهَا كَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ وَخُلَفَاؤُهُ لَهُمْ مِنَ الْكَنَائِسِ مَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إلَيْهِ ثُمَّ أُخِذَ مِنْهُمْ»[أحكام أهل الذمة ٣/ ١١٩٦].
وما في معنىٰ الهدم والتخريب هو الانتفاع ببنائها بجعلها مساكن أو تحويلها مساجد، وقد ورد في السُّنة المطهرة علىٰ وجه الخصوص ما يدل علىٰ مشروعية تحويل أماكن الشرك إلىٰ مساجد، من ذلك ما رواه أبو داود في سننه (٤٥٠) من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ «أَمَرَهُ

=
أَنْ يَجْعَلَ مَسْجِدَ الطَّائِفِ حَيْثُ كَانَ طَوَاغِيتُهُمْ»، والحديث مختلف في تصحيحه، وهو إن كان واردًا في الأصنام فحكمه يعم الكنائس والبيع ونحوها، قال العظيم آبادي في (عون المعبود ٢/ ٨٤): «وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَىٰ جَوَازِ جَعْلِ الْكَنَائِسِ وَالْبِيَعِ وَأَمْكِنَةِ الْأَصْنَامِ مَسَاجِد وَكَذَلِكَ فَعَلَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ حِينَ فَتَحُوا الْبِلَادَ جَعَلُوا مُتَعَبَّدَاتِهِمْ مُتَعَبَّدَاتٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيَّرُوا مَحَارِيبِهَا»، وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (زاد المعاد ٣/ ٥٢٦): «وَمِنْهَا [أي فوائد الحديث]: اسْتِحْبَابُ اتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ مَكَانَ بُيُوتِ الطَّوَاغِيتِ، فَيُعْبَدُ اللهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْئًا فِي الْأَمْكِنَةِ الَّتِي كَانَ يُشْرَكُ بِهِ فِيهَا، وَهَكَذَا الْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ أَنْ تُهْدَمَ، وَتُجْعَلَ مَسَاجِدَ إِنِ احْتَاجَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، وَإِلَّا أَقْطَعَهَا الْإِمَامُ هِيَ وَأَوْقَافَهَا لِلْمُقَاتِلَةِ وَغَيْرِهِمْ».

وأظهر منه وأوضح ما جاء في صحيح ابن حبان (١١٢٣) وسنن النسائي (٧٠١) بإسناد صحيح، عن طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا وفدًا إلىٰ النبي ﷺ فبايعناه وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بَيْعَةً لنا فاستوهبناه من فضل طهوره فدعا بماء فتوضأ وتمضمض ثم صبه في إداوة، وأمرنا فقال: **«اخْرُجُوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدًا»**.

قال الشوكاني في (نيل الأوطار ٢/ ١٧٠): «وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَىٰ جَوَازِ اتِّخَاذِ الْبِيَعِ مَسَاجِدَ. وَغَيْرِهَا مِنْ الْكَنَائِسِ وَنَحْوِهَا مُلْحَقٌ بِهَا بِالْقِيَاسِ».

وقد سُئِلَ شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ عن بَيْعَةٍ بقَرْيَةٍ ولها وَقْفٌ وانْقَرَضَ النَّصَارَىٰ بِتِلْكَ الْقَرْيَةِ وَأَسْلَمَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ. فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا؟

فَأَجَابَ: «نَعَمْ إذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا تِلْكَ أَحَدٌ جَازَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا؛ لَا سِيَّمَا إنْ كَانَتْ بِبَرِّ الشَّامِ فَإِنَّهُ فَتْحُ عَنْوَةٍ»[مجموع الفتاوىٰ ٣١/ ٢٥٦].

وأفتت بذلك اللجنة الدائمة بالسعودية برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز، وكذلك دار الإفتاء المصرية بتاريخ ١ يونية ١٩٥٧م بإفتاء الشيخ حسن مأمون.

هذا، ولم يكن العثمانيون بدعًا في ذلك، فقد سبقهم الكثير من الخلفاء وأشهر ذلك ما حدث في جامع دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها كنيسة يوحنا، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة، فأخذوا منها الجانب الشرقي فحولوه مسجدًا، وبقىٰ الجانب الغربي كنيسة بحاله من لدن سنة أربع عشرة إلىٰ هذه السنة[أي: سنة ست وثمانين]، فعزم الوليد علىٰ أخذ بقية الكنيسة منهم وعوضهم عنها كنيسة مريم لدخولها في جانب السيف، وقيل عوضهم عنها كنيسة تُومَا، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلىٰ

هذا الإنجاز أسهم في الإعلاء من شأن الغازي عثمان لدىٰ كافة أطراف القبيلة.

وبعد هذا النصر الجديد، أرسل الغازي عثمان مع ابن أخيه آك تيمور الكثير من الغنائم والأسرىٰ بمن فيهم الوالي نفسه إلىٰ السلطان السلجوقي[1].

وكان السلطان السلجوقي في هذا الوقت هو غياث الدين مسعود الثاني[2]، وقيل إنه لما سمع بهذا الفتح أعطىٰ لعثمان غازي منشورًا بتخصيص منطقة سوغوت وحواليها له علىٰ أن يكون أسكي شهر واين اوكىٰ مقر ولايته[3]، وأرسل له راية بيضاء وجوقة الحرب

=

مسجد الصحابة، وجعل الجميع مسجدًا واحدًا علىٰ هيئة بديعة لا يعرف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيرًا في البنيان والزينات والآثار والعمارات، والله سبحانه أعلم». [البداية والنهاية ٩/ ٨٥].

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٢) انظر: «تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرىٰ» د. محمد سهيل طقوش، ص ٣٣٥، دار النفائس ٢٠٠٢م.

(٣) تواريخ ملوك آل عثمان – من كتاب فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار، حاجي خليفة، ص ١٣٤. و«بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٢. و«تاريخ جودت» ١/ ٣٤، مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨هـ. إلا أن الأخير يذكر أن السلطان السلجوقي هو علاء الدين كيقباذ الثالث. فقد يكون ذكره خطأ أو أنه فعل الأمر نفسه مرة أخرىٰ في ولايته وهذا الذي أميل إليه كما سيأتي، ومن المحتمل أن كيقباذ الثالث كان يشارك غياث الدين مسعود الحكم علىٰ قسم من بلاد الروم في ذلك الوقت وفقًا لسياسة المغول في تعيين أكثر من حاكم في الوقت نفسه، كما يرىٰ د. طقوش [تاريخ سلاجقة الروم ص٣٣٦].

ورمز الرتبة (عبارة عن شعر ذيل حصان مثبت علىٰ خوذة أو علىٰ سارية علم) فأصبح عثمان بذلك أمير ثغر «أوج بك»[1].

بل يذكر شيخ الإسلام محمد سعد الدين ابن حسن جان[2] في كتابه «تاج التواريخ»[3] بأن السلطان غياث الدين السلجوقي أعطاه لقب «السلطان» مع منشور الولاية والاستقلال[4].

استمرار الغزو على حدود بيزنطة:

في عام ١٢٩٢م اتجه الغازي عثمان نحو وادي صقاريا[5] وذلك بدعم من صديقه كوسه ميخال (مخائيل) حاكم «خَرْمَان كايا»

---

(١) الدولة العثمانية المجهولة، (ص٥٩).

(٢) سعد الدّين مُحَمَّد بن حسن جَان: تبريزي الأصل قسطنطيني المولد والمنشأ والوفاة، كان مفتي الدولة ومعلم السُّلْطَان مُرَاد الثالث ابن السلطان سليم الأول، كَانَ من الْعلم في مرتبَة يعز الْوُصُول إليها وَقد وَقع الِاتِّفَاق علىٰ تفرده بأنواع الْفُنُون ولزِمَ درس الْمولىٰ شيخ الاسلام أَبِي السُّعُود العمادي وَأخذ عَنهُ وانتفع بِهِ ولازم مِنْهُ ثمَّ ترقىٰ في الْمدَارِس ونصبه السُّلْطَان مُرَاد مُعلما لنَفسِهِ وَأَقْبَلت عَلَيْهِ الدُّنْيَا بكليتهما وَلم يبْقَىٰ أحد إلا انقاد إليه وعول عَلَيْهِ في أمره ولما توفي السُّلْطَان مُرَاد أبقاه ابنه السُّلْطَان مُحَمَّد الثالث مُعلما لنَفسِهِ أَيْضًا. [خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٣/ ٤١٨، ٤١٩].

(٣) ترجم محمد بن حسن جان كِتابَ مصلح الدين لارىٰ المسمىٰ: «مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار» من الفارسية إلىٰ التركية، وعندما وصل إلىٰ الجزء العاشر المخصص بتاريخ آل عثمان استبدل به كتابه المعروف باسم: «تاج التواريخ» الذي ترجمه حسين خوجة إلىٰ العربية في كتابه «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ظنًا منه أنه كتاب «لارىٰ»، فالذي ترجمه حسين خوجة حتىٰ وفاة السلطان سليم الأول هو علىٰ التحقيق كتاب «تاج التواريخ» لشيخ الإسلام محمد بن حسن جان، انظر: مقدمة محقق «بشائر أهل الإيمان » ١/ ١٣-١٦.

(٤) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٢.

(٥) إحدىٰ المحافظات التركية تقع في شمال البلاد.

النصراني، كما انضم لهذه القوات «سامسا شاويش» مع فرسان قبيلته. وبذا تضاعفت قوة عثمان، وتمكن من فتح سوكون غوينوك[1] وتاراكلىٰ ينيجه[2].

وعلىٰ الرغم من أن المصادر العثمانية أشارت إلىٰ منشور السلطان السلجوقي بالإمارة لعثمان بعد فتح قَرَاجَه حِصار ١٢٨٨م كما سبق بيانه، إلا أننا في هذا التوقيت نرىٰ عثمان ما يزال غازيًا تابعًا لإمارة «أبناء جوبان» وذلك وفق شهادة المؤرخ البيزنطي باتشميرز **Pachimeres** المعاصر لتلك الفترة[3]، مما يعطي انطباعًا بأن عثمان لم ينفرد حتىٰ هذه اللحظة بالإمارة وإن كان أُذن له بذلك، ومن الواضح أنه ما يزال علىٰ رأيه السابق في عدم تولي الإمارة ما دام السلاجقة يحكمون، أو أنه أراد أن يستمر مجاهدًا غازيًا بعيدًا عن تبعات الحكم.

وإن جنحوا للسلم:

أعقبت هذه الفتوحات، فترة سلام امتدت لسبعة أعوام متواصلة، كان رعاياه من المسلمين وغير المسلمين من كافة الأعراق في

---

(١) منطقة تابعة لمحافظة بولو التركية.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٣) تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة د. سيد محمد السيد محمود. ص ٨٤-٨٥.

خلالها ينعمون بالعدل والأمن والرفاه تحت حكمه، وهذا ما جعل سمعته الحسنة تنتقل في كافة أرجاء المنطقة كحاكم عادل. ذلك أنه لم يكن يفرق بين المسلمين وسواهم في المعاملة، وكان منصفًا مع الجميع دون استثناء، وفيًّا لمن يحسن إليه، يرد المعروف أضعافًا مضاعفة. وحين كان يواصل فتوحاته، حاول بعض من رجالاته أن يقنعه بالتوجه نحو بيله جيك وفتحها، رد عليهم بالقول: «لقد كنا غرباء علىٰ هذه الديار، ولكنهم استقبلونا خير استقبال، وكانوا نعم الجيران لنا. ومن الواجب علينا أن نرعىٰ حقوقهم، وأن نرد لهم الإحسان بالإحسان قدر الإمكان»، وهذا يظهر مدىٰ تمسكه بالحق والعدل في تعامله مع الجميع.

وكان يواصل إغداق والي بيله جيك بالهدايا في كل مرة يعود فيها من المصايف، ويترك لديه ممتلكاته أمانة حين يغادر. ولا يتردد في مساعدة حلفائه وتقديم العون لهم وقت الحاجة، ففي إحدىٰ المرات حين شن والي كوبروحِصار هجومًا علىٰ والي بيله جيك، استعان الأخير بالغازي عثمان لمساعدته، والذي لم يتردد في إنقاذه من هذا الموقف الصعب[1].

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

محاولة اغتيال تتحول إلى فتح:

ورغم ما كان من سماحة عثمان مع البيزنطيين واتباعه لسياسة العطاء والسلم فقد كان أعداء الإسلام لا يقيمون وزنًا لكل ذلك، وبدافع من مشاعر الحسد والحقد، كان الروم يحاولون بشتىٰ الوسائل القضاء عليهم. ولأنهم يدركون عجزهم عن هزيمتهم، فقد بدءوا يحيكون المؤامرات والدسائس للوصول إلىٰ غايتهم.

حيث خططوا لقتل الغازي عثمان في أثناء حضوره حفلة عرس والي بيله جيك علىٰ ابنة والي يارحِصار، ولكنه اطلع علىٰ هذه الخطة بفضل صديقه «كوسه ميخال» الذي عفا عنه من قبل. وهكذا بدأ هو في تدبير مكيدة للإيقاع بأعدائه. حيث أرسل لوالي بيله جيك يعلمه بقرب ذهابه إلىٰ المصايف، وطلب منه الإسراع في التحضير للعرس، وأبلغه بأنه سيرسل إليه ممتلكاته وفق العادة المتبعة مع النساء العجائز، وسيحضر العرس مع بقية نسائه وأفراد أسرته وعشيرته ليتوجه إلىٰ المصايف بعد ذلك علىٰ الفور.

كما عرض عليه أن يقيم الحفل وسط أحد المروج الخضراء المحيطة بدل إقامتها في المدينة التي لن تكون قادرة علىٰ استيعاب كل ذلك الحشد من المدعوين، وصخب الحفل الكبير، كما أن إقامة الحفل وسط الطبيعة سيسر الناظر والخاطر.

وقد ضاعفت هذه الأخبار من فرحة والي بيله جيك، فبالإضافةإلىٰ

القضاء علىٰ عثمان والتخلص منه، كان يأمل بأنه سيستولي بكل سهولة علىٰ نسائه وممتلكاته أيضًا. وعلىٰ الفور أرسل ردًّا لعثمان يبلغه بأنه سيقيم الحفل في موقع قريب من المدينة يدعىٰ جاكِربنار.

وأخيرًا جاء يوم العرس، وفيما كان الغازي عثمان يتوجه مع أحمال ثقيلة من الهدايا والعطايا نحو جاكِربنار كان أربعون شخصًا من المسنين والعجائز يتجهون إلىٰ بيله جيك وهم يحملون متاعهم الثقيل علىٰ ظهور العربات والأحصنة.

ولم يدرك الحراس القلائل الذين بقوا في المدينة، مع بعض سكانها العجائز، أن الأربعين مسنًّا لم يكونوا سوىٰ مجموعة من أشد فرسان الغازي، إلا بعد استيلائهم علىٰ قلعتها. ولكن الوقت كان قد أدركهم حينها، ولم يبقَ أمامهم سوىٰ الاستسلام، فيما أرسل الفرسان رسولًا إلىٰ جاكِربنار ليبلغوا الغازي عثمان بنجاح الخطة.

وكلما طال العرس كان عثمان يزداد قلقًا، فهو لم يكن يعلم متىٰ ستتحرك قوات الوالي للتخلص منه. وأخيرًا وفي ذروة العرس حيث الصخب علىٰ أشده، اقترب منه الرسول ليزف إليه خبر السيطرة علىٰ المدينة. وبعد أن شكر الله وحمده علىٰ هذا الظفر، امتطىٰ جواده علىٰ الفور عائدًا وتبعه جميع فرسانه. أثارت هذه الحركة المفاجئة استياء الوالي وقلقه، فتعقبه مع جنوده مخمنًا أن ضيفه قد أدرك المكيدة المعدة له.

اتبع الغازي عثمان مقولة «إن الحرب خدعة» ونصب كمينًا لأعدائه، بترك مجموعة من فرسانه وسط الطريق، لتبدو كلقمة سائغة يمكن النيل منها بسهولة. وقد تصنّع هؤلاء الهرب فيما يلحق بهم الوالي ورجاله، لاستدراجهم للمكان المتفق عليه، حيث انضموا لبقية رفاقهم، وعادوا لشن الهجوم.

وقد نجا الغازي عثمان من الخطة المعدة للقضاء عليه، فيما غدا معظم جنود الأعداء أهدافًا لسهام فرسانه وسيوفهم. وتحولت فرحة العرس إلىٰ مأتم لهم. وكان من بين الأسرىٰ والي بيله جيك وعروسه الجميلة «هُولُوفيرا»، والتي أطلق عليها عثمان اسم «نِيلُوفَرْ» وزوجها من ابنه أورخان، وقد أنجبت له هذه السيدة النبيلة كلًّا من سليمان باشا، ومراد الغازي. وقد كانت نيلوفر خاتون سيدة تحب الإحسان والقيام بالأعمال الخيرية، حيث أنشأت الكثير من الأوقاف الخيرية في عدد من المناطق. وإحداها هو الجسر الذي بنته علىٰ النهر الذي يمر في سهل بورصه، وقد سُمي هذا النهر فيما بعد علىٰ اسمها. كما أن المسجد الذي بنته في قلعة بورصه هو أحد الأعمال الخيرية الأخرىٰ التي تستحق المديح والثناء، وقد دفنت في مقبرة أورخان الغازي حين وفاتها[1].

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٥-٩٧. شيمشيرغيل، مرجع سابق.

فبعد السيطرة علىٰ بيله جيك، والهزيمة التي ألحقها بقوات الوالي، أرسل عثمان الغازي قواته علىٰ وجه السرعة إلىٰ يارحِصار، حيث تمكنت من السيطرة علىٰ القلعة بسهولة، بعد تشتت جنودها وبقائها دون حاكم، وذلك في عام ألف ومئتين وثمانية وتسعين.

وقد تحولت بيله جيك إلىٰ أحد أهم مراكز الإمارة، حيث بنىٰ فيها مسجدًا وولىٰ الشيخ أده بالي رعاية شئونها، واستقر الشيخ برفقة ابنته وحفيده في بيله جيك، حيث خصصت له خراج قرية كوزآغاج ومدخولها من المحاصيل[1].

الطريق إلى السلطنة

لم يكن الطريق إلىٰ السلطنة سريعًا كما تصوره بعض الروايات، بل فيما نراه صار في خطوات ومراحل مهدت كل منها إلىٰ التي تليها حتىٰ استقر عثمان أخيرًا في سلطنته الجديدة، ويمكن أن نعدد تلك المراحل في التالي:

تعيين رسمي لزعامة القبيلة:

فيما كان عثمان يواصل غزوه علىٰ حدود الروم خطوة تلو الأخرىٰ،

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٧. شيمشيرغيل، مرجع سابق.

كانت القلاقل في عاصمة السلاجقة قد بلغت حدود الخطر. فالمشاكل التي بدأت تعصف بدولة السلاجقة الروم منذ عام ١٢٨٤م، لم تترك لسلاطينهم سوىٰ السيطرة الرمزية علىٰ مناطق حكمهم التي بدأ المغول الإلخانيون[١] يسيطرون عليها تباعًا، ويذيقون الشعب الويلات. كما أن الخان غازان[٢] قام بتنحية السلطان مسعود الثاني[٣]. وذلك في عام ١٢٩٦م، إثر اتهامه

(١) **الإلخانيون أو الإلخان**: دولةٌ قامت بدايةً كإحدىٰ خانيَّات إمبراطوريَّة المغول، واحتلَّت الرُكن الجنوبي الغربي منها، وكانت تحكم بلاد الفارس (إيران حاليًا) كما ضمَّت أجزاءً واسعة من البلاد المُجاورة، كالعراق وأذربيجان وأرمينيا وأواسط تُركيًا وشرقها، إضافةً إلىٰ أفغانستان وبعض باكستان وتُركمانستان. بدأت الإلخانيَّة تتشكَّل بُعيد الغزو المغولي لِخوارزم في عهد جنكيز خان، إلَّا أنها لم تُصبح دولة قائمة وفعليَّة إلَّا في عهد حفيد الأخير، وهو هولاكو بن تولي خان، ومع بداية تفتت الإمبراطوريَّة المغوليَّة سنة ١٢٥٩م، أصبحت الدولة الإلخانيَّة دولةً مُستقلَّةً بِنفسها بِحُكم الأمر الواقع، علىٰ أنَّ حُكَّامها استمرُّوا يُقدمون فُرُوض الولاء والطاعة إلىٰ الخاقان الأكبر في خان بالق، واتخذوا لِأنفسهم لقب «إلخان» أو «إيلخان» بِمعنىٰ «الخان الصغير» أو «الخان الخاضع» لِلدلالة علىٰ هذه التبعيَّة وإن كانت اسميَّة.

وكان اعتلاء «غازان بن أرغون» لِلعرش (٦٩٥هـ=١٢٩٥م) نُقطة فاصلة في تاريخ الدولة الإلخانية؛ لأَنَّهُ حالما اعتلىٰ العرش جاهر باعتناقه الإسلام، ورأىٰ فيه أمرًا ضروريًّا لاستمرار الحُكم المغولي وسط مُحيطٍ إسلاميّ، وتسمَّىٰ باسم «محمود»، واقتدىٰ به مُعظم أُمرائه وضُبَّاطه وجُنده، ففشا الإسلام بِذلك بين المغول. وكان تحوُّل غازان إلىٰ الإسلام نهائيًّا، إلا أنه ورث العداء المغولي للمماليك في الشام ومصر فكانت بينهم الحروب الشديدة التي لا يرضىٰ بها الإسلام.

(٢) محمود غازان بن أرغون سابع سلاطين الإلخانية في إيران، حكم ما بين سنة ١٢٩٥ حتىٰ وفاته ١٣٠٤، وهو ابن أرغون خان وزوجته قوتلوق خاتون، وهو من سلالة ملكية تنتهي إلىٰ جنكيزخان.

(٣) غياث الدين مسعود بن كيكاوس حمل لقب سلطان سلاجقة الروم في خلال فترتين زمنيتين الأولىٰ من ١٢٨٤ إلىٰ ١٢٩٦ والثانية من ١٣٠٢ إلىٰ ١٣٠٨ وخضع إلىٰ سلطة الخان المغولي.

بالتورط في التمرد الذي كان يهدف للإطاحة به. وبذلك بقي عرش سلاجقة الروم خاليًا لمدة عامين. وكانت تلك الفترة الممتدة من عام ١٢٩٦م وحتىٰ ١٢٩٨م، كفيلة بدفع الكثير من إمارات الأناضول إلىٰ الاستقلال. وفي عام ١٢٩٨م عيَّن الخان غازان السلطان علاء الدين كيقباد الثالث سلطانًا للسلاجقة الروم، ولكن يبدو أن عثمان لم يرضَ بسلطنته بعد أن أصاب السلاجقة الضعف الشديد وكان المسيطر الإلخانية المغول[1]، لكنه إلىٰ هذه اللحظة لم يستقل عن السلاجقة بشكل صريح، وهنا يمكن أن نضم الرواية البكتاشية -السابق ذكرها- إلىٰ سياق الأحداث، فبعد الفتوحات التي حققها عثمان والهجمات التي شنها علىٰ الأراضي البيزنطيَّة أرسل «تكفور»، عامل الروم علىٰ بورصه، إلىٰ السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث ليشتكي من تلك الهجمات. فأمر السلطان كيقباذ الثالث گندز ألب -عم عثمان التي تذكر الرواية أنه زعيم القبيلة حتىٰ الآن- بإحضار ابن أخيه الشاب لِيمثل أمامه، فقبض عليه وأرسله إلىٰ قونية. ووفقًا لهذه الرواية فإن السلطان كان مُعجبًا بعثمان وشجاعته وإقدامه، فأرسله إلىٰ الحاج بكطاش ولي الذي استقبله بحفاوة، وأمر بإطلاقه قائلًا: «أنا أنتظر

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

مثله منذ سنوات»، ولفَّ رأسه بقماشة مشايخ الصوفية وصار كأنه أُلبس تاجًا، وأرسل معه إلىٰ قونية رسالة إلىٰ السلطان يمتدحه فيها ويطلب منه إقراره علىٰ زعامة قبيلة قايي، وبعد قراءة السلطان السلجوقي للرسالة أقرَّ عثمان علىٰ إمارة أبيه[1].

ومن هذه اللحظة رأىٰ عثمان في نفسه أنه أهل للإمارة بعد الضعف الذي حل بالسلاجقة وسيطرة الإلخانات، بل سيعلن عما قريب بشكل واضح أنه لن يتحرك تحت تبعية السلطان أو يتبع أوامره من ذلك الوقت فصاعدًا، خصوصًا أن بعض المصادر تشير إلىٰ أن كقيباذ الثالث اشتهر بمظالمه وانهمك في اللهو واللعب[2].

استقلال عثمان بالإمارة:

بعد السيطرة علىٰ قَراجه حِصار في عام ١٢٨٨م، تركها قسم كبير من سكانها، وظل الكثير من المنازل مهجورة خاوية. ولكن مع مرور الزمن أقبل إليها الناس من المناطق المجاورة ومن بلاد كرميان[3] وأخذت المدينة تزدهر من جديد.

---

(١) ولايت نامه: گنجينه فرهنگ وعقايد علوئ – إيران: انتشارات آراس. ص ٢٢١ – ٢٢٦.

(٢) تاريخ سلاجقة الروم، محمد سهيل طقوش، ص ٣٣٦، دار النفائس ٢٠٠٢م، نقلًا عن المصدر الفارسي: «مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار» للآقسرائي.

(٣) إحدىٰ إمارات الأناضول التي نشأت في فترة انحلال دولة سلاجقة الروم، وقد اتخذت من مدينة كوتاهية عاصمة لهم تعود أصول هذه الإمارة إلىٰ الكرد.

ومع حلول العام ١٢٩٩م، أصبحت عامرة بالحياة حيث بُني فيها مسجد ومدارس وأسواق.

واتجه الناس نحو الفقيه طورسون، يطلبون موافقته ليؤمهم في صلاة الجمعة في المدينة، كما طالبوا بتعيين قاضٍ للمدينة من أجل حل الخلافات والمشاكل. والذي اتجه بدوره لعرض الأمر علىٰ الشيخ أده بالي، حيث قام الاثنان بطرح مطالب الناس أمام الغازي عثمان. فصرح لهم عثمان «قوموا بما يجب عليكم القيام به». ولكن الفقيه طورسون استوضح منه قائلًا: «مولاي ألا يجب أخذ موافقة السلطان؟» فرد عليه:

«لقد أخذت هذه المدينة بحد سيفي، فما علاقة السلطان بها لكي أطلب موافقته؟ وكما مَنَّ الله تعالىٰ عليه بالسلطنة، فقد مَنَّ علي بالفتوحات والحكم. وإن كان سيعتبر منحه لنا حكم هذه المدينة منة وفضلًا، فقد حاربت الأعداء مثله وفتحت الكثير من المدن والإمارات بحد سيفي هذا. أما إن كان يفاخر بانتمائه لسلالة السلاجقة، فأنا أفاخر بنسبي الذي يعود إلىٰ غوك آلب، وإن كانت حجته أنه جاء إلىٰ هذه البلاد قبلنا، فقد سبقه جدي سليمان شاه»[1].

(١) شيمشيرغيل، تاريخ بني عثمان. وإن صدق النص بلفظه، فإنني أحمل المقصود بسليمان شاه علىٰ أنه فاتح الأناضول، لما يتأكد لدينا أن جد عثمان هو كوندوز ألب، كما أوضحنا سابقًا!

وعلىٰ إثر ذلك قام الغازي عثمان بتعيين الفقيه طورسون قاضيًا وإمامًا لكارجاحِصار، والذي كان يمت بصلة قرابة للشيخ أده بالي، وكان من أنبغ طلبته، وقد اشترك مع الغازي عثمان في جميع فتوحاته ومعاركه، حيث كان يؤم المجاهدين في الصلاة علىٰ الدوام.

وهكذا اعتلىٰ الفقيه منبر المسجد في أول خطبة جمعة، وبعد الحمد والثناء علىٰ نعم الله والصلاة والسلام علىٰ رسوله الكريم وآله وصحبه، دعا باسم الغازي عثمان علىٰ المنبر، وبدأ بخطبة الجمعة، فكانت الخطبة باسم الخليفة العباسي في مصر والإليلخان في تبريز ثم السلطان السلجوقي ثم عثمان، فصار هذا إعلانًا ضمنيًّا أنه أصبح شبه مستقل.

وبحسب المؤرخ عاشق باشا زاده، فقد حدث الأمر في العام ١٢٩٩م، أما المؤرخ كمال باشا زاده[1] فيخبرنا بأن ذلك حدث ما بين ١٢٨٨م ،١٢٨٩م، أي بعد فتح كارجاحِصار مباشرة.

وهكذا فأغلب المصادر تشير إلىٰ أن التاريخ المرجح لقيام الدولة العثمانية هو عام ١٢٩٩م، وكان عثمان قد بلغ من عمره في ذلك الوقت أربعين ونَيْفًا تقريبًا.

---

(١) أو ابن كمال هو أحمد شمس الدين أفندي ولد في إدرنة ١٤٦٨ وتوفي ١٥٣٦، تقلد منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، بالإضافة لكونه شاعرًا مؤرخًا فقيهًا وأديبًا.

وبحسب كل من النشري[1] وعاشق باشا زاده وكمال باشا زاده، فإن «الغازي عثمان كان قد أعلن عن استقلاله بالحكم في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين، ولكنه ظل علىٰ احترامه للسلطان، حيث واصل ذكر اسمه في خطبة الجمعة، وصك النقود باسمه. وبعد أن توفي السلطان ولعدم وجود ولي للعهد، فقد خلفه علىٰ العرش وزيره صحاب أته؛ حينها أعلن الغازي عثمان طورسون إمامًا وقاضيًا علىٰ قَرَاجَه حِصار، وابتدأ من ذلك التاريخ ذكر اسم عثمان في خطبة الجمعة لأول مرة، وتم الدعاء له بدلًا من السلطان».

وما يشير إليه النشري، لا يوضح تبعية إلزامية للغازي عثمان اتجاه السلطان السلجوقي، بقدر ما يظهر أنه أحد دلالات الاحترام لا أكثر.

وفي ذلك الوقت كلف عثمان تورغوت آلب بقيادة الجيش والتوجه لفتح إينيغول، وقبل مضي وقت طويل، انضم علىٰ رأس بقية قواته للمحاصِرين، فاستسلمت القلعة بعد فترة قصيرة، وتم إعدام نيقولا والي إيناكول الذي سبب الكثير من الخسائر للأتراك لسنوات طويلة[2].

(١) محمد نشري مؤرخ عثماني تُوفي في عام١٥٢٠م .
(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

عثمان على كرسي السلطنة

أسهمت عدة عوامل في أن يتحول عثمان بن أرطغرل من كونه غازيًا وأمير ثغر إلىٰ أن يكون سلطانًا مستقلًا، من ذلك:

١- أن أبناء جوبان الذين كان عثمان تابعًا لإمارتهم كانوا قد ضعفوا في مواجهة البيزنطيين عقب مقتل مظفر الدين ياولاق أرسلان ابن جوبان، وتنازل ابنه محمود عن قيادة الغزو في تلك المنطقة لأخيه علي الذي لجأ إلىٰ البينزنطيين، فقاد عثمان الغزو وتجمع حوله التركمان كما أوضح المؤرخ البيزنطي باتشميرز **Pachimeres** المعاصر لتلك الفترة[1].

والواقع أن شخصية عثمان بن أرطغرل كانت جاذبةً للناس، ولعل الكلمات التي وصف بها العصامي شخصية هذا الرجل العظيم توضِّح لنا بعض أسرار التفاف الناس حوله، كما توضِّح لنا طبيعة هؤلاء الناس وخلفياتهم؛ قال العصامي: «كان واسع العطاء شجاعًا مقدامًا علىٰ الأعداء، ما خلف نقدًا ولا متاعًا، إلا درعًا وسيفًا يقاتل بهما الأعداء الكفار، وبعض خيل، وقطيعًا من الغنم اتخذها للضيفان»[2].

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة ، د. سيد محمد السيد محمود، ص ٨٤-٨٥.

(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٤/ ٧١.

أوضحت لنا هذه الكلمات بعض الصفات المهمة التي تميز بها عثمان عن أمراء الإمارات التركية المجاورة له في هذا الوقت، وأعني بها صفات: الكرم، والجهاد في سبيل الله، والزهد في الدنيا، وهي تركيبة عجيبة من الصفات لا تتوفر إلا في النادر من الرجال، فالجهاد في سبيل الله كان يُوفِّر له أرضًا ومالًا من الغنائم التي يحققها؛ ولكن لكونه زاهدًا في الدنيا وغير متعلق بها فإنه كان واسع العطاء لا يُبقي علىٰ شيء في يده، وكان يُرسل فقط خُمس غنائم الغزوات والمعارك إلىٰ السلطان السلجوقي ويُقسِّم الباقي علىٰ جنوده المُحاربين، ممَّا جعل جنوده يحبونه ويخلصون له في الوقت الذي أصبح السلطان مُستاءً من أعماله، ولمَّا كتب لهُ يسأله لِماذا يُقسِّم الغنائم بدون أمره وكيف يرسل له الخُمس فقط، ردَّ عليه عثمان بأنه يُنفِّذ أمر الله لا أمر السلطان، لأن هذا حُكم شريعة الإسلام، فكان أمر السلطان بأن يفعل ما يشاء ولا يتجاوز أوامر الله[1].

وهذا المال الوفير والعطاء الغزير وعدم الطمع فيما يتقاتل عليه الناس من أمور الدنيا جعل القلوب تلتف حوله، وصار عثمان نفسه عنصرًا جاذبًا لطوائف كثيرة من الناس شاركت معه في بناء

(١) أضواء علىٰ تاريخ توران (تُركستان)، السيِّد عبد المُؤمن السيِّد أكرم، ص ١٦٦. رابطة العالم الإسلامي – المملكة العربية السعودية.

إمارة أقوىٰ من الإمارات المحيطة علىٰ صغر حجمها، ولأن المساحة المتوفرة لهذا الجهاد موجودة بكثرة في هذه المنطقة الملاصقة للدولة البيزنطية صريحة العداء فإن تسارع الفرسان لمشاركة عثمان في بناء جيشه وشعبه كان كبيرًا؛ فترك كثير من الفرسان إماراتهم التركية القديمة في الأناضول والتحقوا بعثمان، باحثين عن «فرصة جهاد»! يقول المستشرق الألماني «كارل بروكلمان»: إن المئات ممن كان يطلق عليهم اسم المندفعين (المجاهدين)، كانوا يَفدون إلىٰ التخوم المواجهة للبيزنطيين للانضمام إلىٰ عثمان حبًّا في الجهاد[1].

وإن كان «بروكلمان» -كغيره من المستشرقين- يرىٰ أن ذلك الجهاد كان بدافع تحصيل الأموال والارتزاق وغيره من الأسباب الدنياوية، وإن كنا لا ننفي الحظ الدنياوي عن الشخصيات المسلمة، فالله أخبر عن صحابة النبي ﷺ في غزوة أُحد بقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[آل عمران: ١٥٢]، لكننا مع ذلك لا نقبل هذا التفسير المادي الاستشراقي للأحداث علىٰ أنه هو الدافع الأوحد، ولنا الظاهر من عمل البشر والله يتولىٰ النيَّات،

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلها إلىٰ العربية: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م، ص ٤٠٨- ٤٠٩.

وسواء كان الدافع وراء الجهاد عند هؤلاء الوافدين هو حب العمل لله والتضحية في سبيله، أو كان السعي وراء الارتزاق عن طريق احتراف القتال؛ فإن هذا أدىٰ بطبيعة الحال إلىٰ زيادة حجم الجيش التابع لعثمان، وهكذا تكوَّن جيش مهم يعتمد علىٰ الفرسان والخيول في الأساس، وهو ما يُعرف بالسباهي[1].

٢- ومن هذه العوامل المهمة تعيين السلطان علاء الدين كيقباذ الثالث عثمان زعيمًا للقبيلة بدلًا من عمه الذي أعقبه فيما بعد بإرسال الطبل والعَلم وشارة الرأس لعثمان كعلامات للسلطنة في عام ٦٩٩هـ = (١٢٩٩ -١٣٠٠م)[2]، ويبدو أن سلطان السلاجقة لمح توجه عثمان إلىٰ الاستقلال فهو -لا شك- يرقب النمو المتزايد لقوته، ويرقب التفاف الناس حوله، كما يرقب تحركات عثمان الإيجابية في مواجهة الدولة البيزنطية، فقرر أن يرسل له من طرفه هذه العلامات والشارات التي تُقِرُّ بإمارته ليضمن ولاءه له وعدم انقلابه عليه، علىٰ طريقة: بيدي لا بيد عمرو! فالتسلسل المتوقع للأحداث هو إعلان عثمان الاستقلال كما أعلن ذلك

(١) السباهي، أو «تِيمَارْلي سباهي»: هو سلاح الفرسان أصحابه من الفرسان الذين مُنحوا إقطاعيات في الأقاليم تسمىٰ «تيمار».

(٢) الدولة العثمانية المجهولة (ص٤٦)، أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (ص٩١).

غيره من الأمراء الأتراك في الأناضول، وهذا قد يورث عداوة بين الطرفين لا يستطيع سلطان السلاجقة أن يقاومها الآن، وهو في هذه الحالة من الضعف، فكان هذا الإرسال منه شراءً لعلاقة ودٍّ مع أمير واعد ينتظره -فيما يبدو- مستقبل كبير.

ومع كون هذا التنصيب شكليًّا إلا أن آثاره الإيجابية كانت كبيرة علىٰ الإمارة الناشئة؛ إذ زاد الانضمام إليها من طوائف الفرسان المختلفة التي وجدت في عثمان رجلًا معتبراً يهتم به سلطان السلاجقة ويعطيه هذه القيمة، كما رفع ذلك -لا شك- الروح المعنوية لعثمان وآله وجيشه وشعبه، فحين وصل وفد السلطان المرفق بالهدايا، كان الوقت عصرًا. وقد بدأت الآلات الموسيقية بضرب النوبة عند بابه، ونهض الغازي عثمان علىٰ قائمًا علىٰ أقدامه في إجلال لاستقبالهم، وظل قائمًا والنوبة تضرب حتىٰ قرئ التشريف وكسوه كسوة الملوك، وبقيت هذه عادة في آل عثمان إذا ضربت النوبة العصرية يقومون علىٰ أقدامهم إجلالًا وتفاؤلًا واتخذوها تقليدًا استمر إلىٰ المئتي عام المقبلة من قبل خلائفه من السلاطين[1].

ويشير عاشق باشا زاده إلىٰ اثنين من أهم دلالات هذه العادة:

«الدلالة الأولىٰ: لقد كانوا بالأصل قومًا محاربين، وحين كانت تدق

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٢،٩٣. وشيمشيرغيل، مرجع سابق.

هذه الآلات فهي إشارة لموعد المعركة، والاستعداد لها. وكان الجميع بمن فيهم الغازي عثمان ينهضون حين الاستماع لهذا العزف، ليبدوا جاهزيتهم للجهاد في سبيل الله.

وأما الثانية؛ فقد كانوا هم أصحاب الوليمة التي تقام، وكانوا يبقون وقوفًا حتىٰ إطعام آخر جائع علىٰ مائدتهم، وكانوا حريصين أن ينال كل رعاياهم من النعم التي أنعم بها الله عليهم»[1].

ويصف لنا المؤرخ حديدي، هذا المشهد في الأبيات التالية:

«تداولت الأصقاع شهرة الغازي

ونال الحظوة ورايـة الإمارة والطغراء

وأرسل له السلطان من الكنانة سيف

عثمان بن عفان سليل الشرفاء

وبيارق النصر وفسطاط المجد

ونادىٰ باسمه أميرًا للأمراء»[2].

٣- ومن أهم العوامل التي دعمت سلطان عثمان رغبة قبيلته الملحة في سلطنته والتي بدأت -كما سبق- بعد موت أبيه أرطغرل

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٢) السابق.

لكنه رفضها، وعندما قام غازان خان بعزل وحبس كيقباذ الثالث انتهت الدولة السلجوقية من الناحية الفعلية، فاجتمعوا وقرروا مبايعة عثمان علىٰ السلطة[1]، وقد خاطبه أولئك الرجال والزعماء في اليوم الذي تقلد فيه الزعامة قائلين:

«إنك تنحدر من صلب قبيلة قايي، والتي كانت منبت كل الزعماء والخانات من بعد الأوغوز. فبعد أن انحسرت قوة خانات الأوغوز ولم يعد أحد من نسلهم قادرًا علىٰ استلام الحكم والسلطة، لا يجوز أن تنتقل السلطة إلىٰ أحد آخر، وأفراد قبيلة القايي هم الأحق والأجدر بها. من الآن وصاعدًا، لن نجد العون والمدد من السلاجقة، فهم فقدوا السيطرة علىٰ معظم سلطَنَتِهم، وهزمهم التتار. كما أن والدك كان من المقربين من المرحوم علاء الدين، لذا فأنت أحق بزمام السلطة؛ لأنك تمتلك المقومات اللازمة لتصبح السلطان، وهذا ما أجمعنا عليه. كونك تحوز علىٰ الصفات الضرورية للحكم، وعلىٰ إجماع القوم.

ونحن نعاهدك أن نكون رجالك الذين سيدينون لك بالولاء والطاعة، وسنقوم معًا بفتح كل ما يجاورنا بالحسنىٰ، ونضمها

(١) الدولة العثمانية المجهولة (ص٤٦).

إلينا»[1].

فقبل عثمان بذلك، ووقف جميع الأمراء ورؤساء العشائر وطائفة الأوغوز وبموجب قانونهم انحنوا له ثلاث مرَّات[2]، وأحضروا كثيرًا من العسل والشراب، وقدموا قدحًا إلىٰ عثمان ولما شربه دعوا وهللوا قائلين: «نسأل الله لك الصحة والعافية في الدنيا وليبارك الله السلطنة»[3].

٤- وكذلك فإن مشايخ الصوفية كان لهم إسهام كبير في ذلك، فبشكل عام انتشرت الطرق الصوفية في القرنين السادس والسابع الهجريين[4]؛ وهما القرنان اللذان سبقا قيام الدولة العثمانية، وكان

---

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق. تواريخ آل عثمان ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) قال العلماء: ما جرت به العادة من خفض الرأس والانحناء إلىٰ حدٍّ لا يصل به إلىٰ أقل الركوع - عند اللقاء - لا كفر به ولا حرمة كذلك، لكن ينبغي كراهته؛ لقوله ﷺ: لمن قال له: «**يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَىٰ أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ**» الحديث. أما إذا انحنىٰ ووصل انحناؤه إلىٰ حد الركوع فقد ذهب بعض العلماء إلىٰ أنه إن لم يقصد تعظيم ذلك الغير كتعظيم الله لم يكن كفرًا ولا حرامًا، ولكن يكره أشد الكراهة؛ لأن صورته تقع في العادة للمخلوق كثيرًا . وذهب بعضهم إلىٰ حرمة ذلك ولو لم يكن لتعظيم ذلك المخلوق؛ لأن صورة هيئة الركوع لم تُعهد إلا لعبادة الله سبحانه. [الموسوعة الفقهية الكويتية: ٢٣/ ١٣٤-١٣٥].

(٣) تواريخ آل عثمان ص ١٠٨.

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/ ٢٥٨-٢٦١، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠ هـ.

هذا الانتشار كبيرًا في الأناضول، بل عاش ابن عربي[1] أحد كبار الصوفيين في شرق الأناضول فترة من حياته قبل أن ينتقل إلىٰ دمشق ليموت فيها سنة ١٢١٠م = ٦٣٨هـ[2]، وانتشر فكره بشكل كبير بين الأتراك، وله عندهم مكانة كبيرة، حتىٰ إن السلطان سليمًا الأول زار قبره في دمشق عندما دخلها[3]، والشاهد أن فكره كان منتشرًا في الأناضول في الوقت الذي حكم فيه أرطغرل وأبناؤه هذه

(١) محمَّد بن علي بن محمَّد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، المعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات في التصوُّف وغيره، وسمع ببغداد ومكَّة ودمشق، وسكن الروم، وهو من الشخصيات التي تنازع عليها العلماء قديمًا وحديثًا؛ ولكن الثابت أنه يقول بأفكار فلسفية خطيرة؛ مثل وحدة الوجود، والحلول والاتحاد، وإنكار الحساب، وأمور أخرىٰ ضالة ليس المجال يسمح بشرحها، وقد كفَّره بها بعض العلماء، وفسَّقه آخرون، بينما دافعت عنه طائفة ثالثة بأنه لا يقصد المعاني المتعارف عليها للألفاظ بين الناس، وعمومًا فإن القارئ لكتبه يحتاج أن يكون راسخًا في العلم حتىٰ يُفرِّق بين الحق والباطل، ولا يلتبس عليه أمر من الأمور فيخرج به عن العقيدة السليمة.
انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق: بشار عوَّاد، ١٤/ ٢٧٣، وفوات الوفيات لصلاح الدين محمد بن شاكر٣/ ٤٣٥، ٤٣٦، والوافي بالوفيات للصفدي، ٤/ ١٢٤، وصديق حسن خان: التاج المكلَّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأوَّل، ص١٦٣.
(٢) في السنين التالية لسنة ٥٩٨ هـ نجد أن ابن عربي ينتقل بين بلاد الأناضول وسوريا والقدس والقاهرة ومكة، ثم ترك بلاد الأناضول ليستقر في دمشق. مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/ ٧٨٤.
(٣) انظر: الديار بكري (ت ٩٦٦هـ): تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الناشر: دار صادر – بيروت، ٢/ ٣٩٠، ٣٩١، ونجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ): الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ١/ ٢١١، ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٠/ ١٦١.

الإقطاعية النائية في غرب الأناضول؛ وهذه الأماكن البعيدة من العالم الإسلامي لا تجذب عادة كبار العلماء السنة، والذين عادة ما يسكنون في المدن الكبرىٰ حيث المدارس والمساجد الضخمة ودروس العلم، وسهولة توفر الكتب والمصادر، بالإضافة إلىٰ ذلك عدم إلمام الأتراك بشكل عام باللغة العربية، فهم منقطعون عن مصادر العلوم الغزيرة التي كتبت باللغة العربية؛ من تفسير للقرآن، أو شرح للسنة، أو فقه أو عقيدة، وهذا كله أدىٰ إلىٰ قبول الأفكار الصوفية إلىٰ حدٍّ كبير، مع ما في كثير منها من غلو أو ابتداع.

ومن ثَمَّ تحرَّك أتباع هذه الطرق الصوفية لينضمُّوا إلىٰ هذا الكيان الجديد، وقد جذبهم إلىٰ هذا المكان بُعده وتطرُّفه عن بقية مناطق العمران، والصوفية معروفون بسعيهم للأماكن البعيدة والنائية، كما جذبهم كذلك إسلامية عثمان، وطبعه الزاهد في الدنيا؛ فهو في ظاهره له هيئة المتصوفين، مما جعلهم يستريحون للاستقرار في بلاده، ويُفضلونها علىٰ غيرها من الإمارات التركية. وعثمان نشأ صوفيًّا وتربىٰ علىٰ يدي كبار مشايخهم وخاصة الشيخ «أده بالي» و«حاجي بَكْتَاشْ ولي» و«أَخي أَوْرَنْ»، بل يبدو أن الصوفية اعتقدوا في عثمان السلطنة وتشرفوا لها من قبل ذلك، فيذكر «جودت باشا» أن محيي الدين ابن عربي بشّر قبل ٧٠ عامًا من

تأسيس الدولة العثمانية بتأسيسها. فقد استنبط ذلك من الآيات الموجودة في القرآن الكريم بواسطة «الجفر»[1] في مؤلف سماه بـ«الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية»[2] وذلك قبل تأسيس الإمارة العثمانية[3].

بالطبع هذا التزاوج المبكر بين الطرق الصوفية ومقاليد الحكم والإدارة في الدولة العثمانية سيكون له آثار ملموسة وانعكاس ظاهر علىٰ خط سيرها؛ فمن ناحية إيجابية فقد أعطت هذه الفرق النزعة الإسلامية الواضحة للدولة العثمانية، فصارت معظِّمة لأمر الدين في كل مراحلها؛ ولكن من ناحية سلبية أخرىٰ فإنها -أي الدولة- افتقرت في كثير من مراحلها إلىٰ العلم الشرعي السليم الذي يدفع الدولة إلىٰ الرأي الصائب وفق القرآن والسنة، وهذا ما أوقع الدولة العثمانية في أخطاء شرعية فادحة كان لها أثر كبير علىٰ مستقبلها.

---

(١) **الجفر**: هو ادعاء معرفة الحوادث من خلال الحروف، إذ يكون لكل حرف رقم معين يدل عليه، وفق طريقة استُخدمت في اللغات السامية وعند اليهود، واشتهر عند الشيعة ونسبوه لجعفر الصادق كعلم من أسرار الغيب، وتبعهم فيه بعض الصوفية الباطنية. وكله تخرص وتكهن بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

(٢) الكتاب منشور لدىٰ دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.

(٣) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ترجمة: د. محمد حرب، ص ٢٨، دار الأرقم إستانبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

ولكن ينبغي هنا الإشارة إلىٰ أمرين لتنضبط الصورة كما كانت؛ فأما الأمر الأول فهو أن الحكام العثمانيين، وعلىٰ رأسهم عثمان، لم يكونوا يقولون بكل ما يقوله الصوفية من مبالغات، ولم تكن الدولة تتبنىٰ هذه الأفكار أو تفرضها علىٰ الناس، أو تعلمها لهم في المدارس والمناهج؛ إنما غاية ما هنالك هو أن الطرق الصوفية كانت مقدَّرة ومقرَّبة من الهيئة الحاكمة، وكان لها تواجد كبير في كل أرجاء الدولة، وكانت احتفالات الدولة الرسمية تهتم بوجود الشكل الصوفي لها، وأما الأمر الثاني فهو أن الصوفية في الدولة العثمانية لم تكن انعزالية كما كانت في بلاد المشرق؛ بمعنىٰ أن أصحاب هذه الطرق كانوا يختلطون بالناس؛ بل يختلطون بالجيش، ويُشاركون في الحروب والمعارك؛ بل لعل وجود هذه الفرق الصوفية كان دافعًا لكثير من الجند لأن يبذلوا أرواحهم في الفتوحات، وكانت هذه المناهج سببًا في قلة تعلقهم بالدنيا؛ ومن ثَمَّ إقبالهم علىٰ الجهاد، وهي بذلك حقَّقت جانبًا إيجابيًّا خاصة في السنوات الأولىٰ لنشأة الدولة العثمانية، والتي كانت تعتمد اعتمادًا كبيرًا علىٰ قوة جيشها وإقباله علىٰ القتال.

ولا شك في أن للشيخ أده بالي دورًا مهمًّا في ذلك خصوصًا بعد أن استبشر بالرؤيا التي حكاها له عثمان من قبل، وكان يسير معه خطوة بخطوة، ويعلمه منذ البداية، وكأنه يجهزه لهذا اليوم

العظيم، وفي هذا الصدد أسدىٰ له مجموعة من النصائح التي ستبقىٰ ماثلة لقرون طويلة في الأذهان، فقال له:

«أيا بني! لقد بت الحاكم، ومن الآن فصاعدًا، لنا ضيق الصدر، ولك سعته.

ولنا الامتعاض والنفور، ولك التحمل.

لنا الضعف والتعثر، ولك القوة والتحمل.

لنا الخلافات ولنا التبرم والحدة، ولك العدالة والجلد.

لنا سلاطة اللسان، والأحكام الخاطئة والتسرع، ولك العفو والمسامحة.

أيا بني! من الآن فصاعدًا لنا الانقسام والاختلاف، ولك الوفاق وتوحيد الصفوف.

لنا التقاعس، ولك العزيمة والإقدام والهِمة.

أيا بني! تسلح بالصبر، واعلم أن الورود لا تزهر قبل أوانها، ولا تنسَ أن بناء الأوطان في بناء الإنسان.

أيا بني! حملك ثقيل، وأمامك الكثير من العمل، لذا عليك أن تستجمع كل عزمك، واتكل علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فهو خير معين ونصير»[1].

---

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

وقد كان عثمان مجلًّا لشيخه علىٰ الدوام، يقوم بأخذ مشورته في كل ما يُقدم عليه، وكان الشيخ بدوره من أخلص رجاله وأقربهم إليه، ولأنه كان عونًا كبيرًا لكل من أرطغرل الغازي وابنه عثمان من بعده، فقد تقلد منصب أول قاضي ومفتٍ في الدولة العثمانية[1].

وهذه بعض الوصايا التي قالها الشيخ «أده بالي» في سبيل توجيه واستقامة الغازي عثمان ومن سيأتي بعده كرجل دولة:

«يا بني! إن حملك ثقيل وعملك صعب، فليسهل الله عملك، وليبارك إمارتك، ولينفع بك في سبيل الحق، ولينر لك طريقك، وليصل بك إلىٰ أبعد الأماكن، وليمنحك القوة التي ستعينك علىٰ حملك، والعقل والقلب اللذين يحفظانك من زلة القدم.

ويجب عليك أنت ورفاقك أن تفتحوا ما وُعدنا به بالسيف، وأن نقوم نحن الدراويش بفتحه بالتفكير والدعاء، ويجب علينا أن نزيل هذه السدود أمام الطريق».

«بُني! أنت قوي وعاقل ومتحدث، ولكن لو لم تعرف كيف تتصرف في هذه المَلكات ومتىٰ تستخدمها، فإنك ستذهب مع رياح الصبا، ولن يكون لك وجود. وبالتالي يتحد غضبك

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

ونفسك، ويهزمان عقلك، ولذا يجب عليك أن تكون دائمًا صبورًا، وصاحب إرادة وثبات».

«إن الصبر مهم للغاية، ويجب علىٰ الأمير أن يعرف كيف يصبر، فلن يتفتح الزهر قبل أوانه. والكمثرىٰ النيئة لا تُؤكل، وحتىٰ لو أُكلت فإنها تظل باقية في المعدة وهضمها عسير، والسيف دون العلم والمعرفة مثل الكمثرىٰ غير الناضجة تمامًا».

«ولتُحيي أمتك في عرفانها، فلا تُدِرْ لها ظهرك، واشعر بوجودها كل وقت، فالعرفان هو الذي يدير المجتمع، وهو الذي يجعله حيًّا»[1].

«ولا تنسَ أن الذين يكونون في أماكن عالية ليسوا في أمان مثل الذين بالأسفل».

«إن الدولة ليست مِلكًا مشتركًا يتقاسمه من يديرها مع أبنائه وإخوته، فالدولة خاصة بمن يديرها فقط. وعندما يموت، تكون الدولة تحت إدارة من يحل محله أيًّا كان. وأجدادنا قد قسموا دولهم بين أبنائهم وإخوانهم وهم أصحاء، ولهذا لم تتمكن دُولهم من البقاء، ولم يتمكنوا هم من المحافظة علىٰ دولهم».

---

(١) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ترجمة: د. محمد حرب، ص ٣٢، دار الأرقم إستانبول: ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.

«إذا مات الحيوان يبقىٰ سَرْجُه، وإذا مات الإنسان يبقىٰ أثرُه. لا تبكِ علىٰ من راح، بل ابكِ علىٰ من لم يترك خلفه شيئًا. يجب علينا أن نكمل لمن لم يفِ عمره للإكمال. لا أحب الحرب، ولا أفرح بإراقة الدماء، ورغم ذلك أعلم أنه يجب أن يرفع السيف وينزل، إلا أنه يجب أن يُرفع ويُنزل من أجل إقامة الحياة. فضرب الشخص شخصًا آخر بالسيف جناية. ومكانة الأمير ليس أعلىٰ من مكانة الدولة. والحرب لا تتحقق من أجل الأمير فحسب»[1].

«إن الذي لا يعرف ماضيه لن يستطيع معرفة مستقبله. يا عثمان! عليك بمعرفة ماضيك جيدًا، لتخطو بقوة وثبات في المستقبل. ولا تنسَ من أين أتيت، لئلا تنسىٰ إلىٰ أين ستذهب»[2].

كان الشيخ أده بالي بحكمه ووصاياه القيمة تلك يشكل شخصية «عثمان غازي» وكأنه يشكل قطعة من العجين في يده. فقد كان الواجب علىٰ الشيخ أن ينصحه ويؤدبه، ذلك أن عثمان كان في موقف سياسي صعب، أيتحد مع الإمارات التي قدمت إليه من كل ناحية لتتحد معه؟ أم يحافظ علىٰ التوازن؟ أم يترصد البيزنطيين

(١) السابق ص٣٣- ٣٤.
(٢) السابق ص ٣٤.

أوالجَرْمِيَانِيين؟ أم يراقب المغول، أم يحارب أمراء الروم في الأناضول؟[1].

وبهذه العوامل مجتمعة مع تاريخ عثمان السابق في الغزو كان عثمان جديرًا بالسلطنة، وأعلن استقلاله الفعلي من هذا التوقيت، وفي صدد ذلك يقول كمال باشا: «حين بدأت الدولة السلجوقية بالانهيار وأخذت سلطتها تتداعىٰ، قام الغازي عثمان بتولي زمام الإدارة والفتوحات، وغدا صاحب السلطة الوحيدة في بلاده، بعد أن كان تابعًا للسلطان السلجوقي. وفي العام ستمئة وتسعة وتسعين للهجرة، اعتلىٰ عرش السلطنة، بعد أن كان يجلس علىٰ كرسي الإمارة قبلًا. وهكذا فقد ارتدىٰ جبة الخلافة وتمنطق بالحزام والسيف. وبعد أن كان هلالًا غدا بدرًا، وبحرًا عظيمًا بعد أن كان نهرًا، وقلعة منيعة بعد أن كان قصرًا»[2].

وكان هذا التنصيب بين أواخر عام ١٢٩٩م وأوائل عام ١٣٠٠م، فإذا كان التنصيب وقع في الأشهر الأولىٰ لعام ٦٩٩هـ أي ضمن محرم أو صفر أو ربيع الأول، كان ذلك في عام ١٢٩٩م، وهو المشهور عند المؤرخين، لكننا لا نجد وثيقة أو مصدرًا تاريخيًّا

(١) السابق بتصرف.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

يؤكد ذلك، والمصادر الموجودة بأيدينا تعطي تاريخ ٤ جمادىٰ الأولىٰ من عام ٦٩٩هـ وهذا يقابل ٢٧/ ١/ ١٣٠٠م، وهو التاريخ الذي ثبته السلطان عبد الحميد الثاني كتاريخ لاستقلال الدولة[١].

ومن جدير القول: إن عثمان لم يكن لقبه حال حياته إلا (بك) أي: أمير[٢]، وإن كان لُقب بألقاب أخرىٰ مثل فخر الدين ومحيي الدين إلا أنه لم يلقب بسلطان أو خان إلا بعد وفاته[٣]، وهذا يؤكد الانطباع بأنه ليس من طالبي السلطة ولا مريدي السلطان. رحمه الله رحمة واسعة.

***

(١) الدولة العثمانية المجهولة (ص ٤٥-٤٦).

(٢) وهكذا كان لقب ابنه أورخان، ومن بعده مراد الأول، ولم يظهر لقب السلطان إلا بعد هؤلاء الثلاثة، لكن وإن لم يلقبوا بذلك فلا شك أن مهامهم هي مهام السلطان، يشهد لذلك أن ابن بطوطة في رحلته إلا بلاد أورخان بن عثمان، لقبه وأباه بالسلطان، ووصفه بأنه أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالًا وبلادًا وعسكرًا، له من الحصون ما يقارب مائة حصن. [رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية ٢/ ١٩٧].

بالإضافة إلىٰ ما ذكره صاحب «تاج التواريخ» بأن السلطان السلجوقي أعطاه لقب «السلطان» مع منشور الولاية والاستقلال، راجع ص: ١٢٨.

(٣) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (ص٩١).

تحديات في مسير السلطنة

أظهر عثمان في بداية عهده، براعةً سياسيةً في علاقاته مع جيرانه، حيث التحالفات تتجاوز الخطوط القبليَّة والإثنيَّة والدينيَّة، وربما تبع في ذلك غريزته ومتطلبات تطلُّعاته السياسية، إلَّا أنه لم يُخطئ في تقدير النتائج المُستقبليَّة للعلاقات العائلية التي أقامها لنفسه وضمنها لابنه من بعده[1].

لكن الأمراء الأتراك الآخرين شعروا بالغيرة منه وحقدوا علىٰ تألقه فقاموا بعدة اعتداءات عليه، وكانوا يتلقون المساعدة من بعض القادة البيزنطيين في المنطقة المجاورة؛ وبالتالي دُفع للتحرك بحرب دفاعية من جانبه فأظهر قوته، وقام بالضرب علىٰ أيدي أعدائه في كل اتجاه. كان تأثير قوته في الفوز برعايا جدد لسلطته، مساعدة جوهرية للمكانة التي حازها بصورة مشرفة، باعتباره مُشَرِّعًا وقاضيًا عادلًا في أراضيه اليونانية والتركية والمسيحية والإسلامية التي تمتعت بحماية متساوية للمتلكات والأشخاص[2].

(١) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، (ص٢٧).
(٢) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٦.

وقد لعبت قبيلة «كرميان» دور الوصي «الأخ الأكبر» علىٰ القبائل الأخرىٰ، علىٰ الأقل حتىٰ أوائل القرن الرابع عشر.

وبدأ الصراع بين قبيلة عثمان والبيت الكرماني ربما لأنها كانت المنافس الأول في ذلك الوقت وهي المجاورة مباشرة لإمارة عثمان، والبعض يرجع ذلك العداء إلىٰ أن الكرميانيين أسهموا - مع السلاجقة الروم- في قمع الثورة التي قامت في خلال السنوات ١٢٣٩ :١٢٤١م بقيادة الدراويش البابائية، والذين هرب الكثيرون منهم كزعيمهم أده بالي **(Ede Bali)** فكونوا علاقات ودية مع العثمانيين وزوج أده بالي ابنته لعثمان، ثُمَّ إنَّ الكرميانيين كانوا من غير الغُز (الأوغوز) فهم أكراد علىٰ الأرجح[1]. والحاصل أنه بدأ ينشب صراع بين تلك القبيلة المنافسة والعثمانيين، بدأ في حياة عثمان، وطال أمده في خلال عهود عدد من خلفائه. وكان عثمان نفسه قد حقق بعض التقدم علىٰ منافسه.

ومن المهم أن نعرف أن عثمان لم يكن من الذين يحقدون علىٰ الأمراء البارزين في هذه الإمارات فيبدأ في منافستهم ويتصارع معهم، ففي الوقت الذي كان عثمان ينتقل من نصر إلىٰ نصر، كان

(1) Michael Broome, 1985 , A handbook of Islamic coins, p. 132, Seaby, University of Michigan.

أمير «آيدين» محمد بك يفتح مدنًا في الأناضول ويضمها إلىٰ إمارته مثل «بيرجي» التي اتخذها عاصمة له، ثم تابع زحفه حتىٰ وصل أزمير، ونتيجة لذلك أصبح رجلًا مرموقًا في الجهة الغربية من الأناضول، ولم يؤدِّ ذلك إلىٰ تنافس بينهما أو عداوة أو حسد، بل أدىٰ إلىٰ تشجيع كل منهما للآخر في فتح هذه الحصون البيزنطية[1].

كان علىٰ عثمان، بعد أن ثبَّت أقدامه في إمارته، أن يُكافح علىٰ جبهتين: الجبهة البيزنطية، وجبهة الإمارات التُركمانيَّة التي أبدت مُعارضةً له وبخاصَّة الإمارة الكرميانية، وقد وضع نصب عينيه توسيع رقعة إمارته علىٰ حساب البيزنطيين أولًا، ومنذ تلك المرحلة أصبح الهدف الأساس للإمارة العثمانية هو اتباع سياسة الفتح التي ترتكز علىٰ مفهوم الغزو والجهاد ضدَّ ديار الروم[2].

تردد بعض مستشاري عثمان في سَلْك ذلك المَسْلَك الجريء للفتوحات الذي سار فيه زعيمهم بثبات كبير. لكن عثمان أسكت كل احتجاج وقمع أي احتمال للفتنة والتمرد.

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية، أ.د. تيسير جباره، (ص٣٠)، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، الماصيون - رام الله / فلسطين، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.

(٢) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، (ص٢٧).

فعمه دوندار عارضه، وحَذَّر من خطر الاستفزاز الذي يشكله مثل هذا الطموح الزائد لكل القادة المجاورين الأتراك منهم فضلًا عن البيزنطيين، فيقومون بالتحالف ضدهم لتدمير عشيرتهم.

وهنا غضب عثمان وقام برمي عمه المُسِن بسهم فتُوفي في الحال[1].

نقل هذه الرواية المستشرق والمؤرخ والدبلوماسي النمساوي، جوزيف فون هامر **Joseph von Hammer** في كتابه «تاريخ الإمبراطورية العثمانية **Geschichte des osmanischen Reiches**» عن المؤرخ العثماني «إدريس البدليسي» الذي كتب كتابه الشهير في التاريخ العثماني «هشت بهشت» في عهد بايزيد الثاني، والبدليسي أعلن في بداية كتابه أنه لن ينقل للأجيال القادمة سوىٰ المآثر الجليلة لسلالة عثمان الحاكمة، وهذا مفتاح مهم جدًّا لقبول مثل هذه الرواية، فهي في منزلة المحامد لا المثالب، نقول هذا لأن البعض تلقف هذه الحادثة، ونسج حولها ما لا تحتمل، فزعموا، أن عثمان قتل عمه دوندار خشية أن يزاحمه علىٰ السلطنة، وليس في هذه الرواية ما يدعم ذلك، وإن كان «فون همر» استشنعها أيضًا[2].

---

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص٣٧.

(2) Von Hammer, vol. i. p. 78.

ولعل المؤرخ التركي «قادر مصر أوغلو» في كتابه «مأساة بني عثمان» يوضح لنا بعض الغموض في مُلابسات هذه الحادثة، فينقل عن المؤرخ التركي «خير الله الهندي» الذي عاصر عثمان بن أرطغرل، أن دوندار كان طرفًا في مؤامرة اتفق علىٰ تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة «بيله جك» البيزنطي، تستهدف اغتيال عثمان، تمهيدًا لوثوب دوندار إلىٰ الزعامة خلفًا لعثمان، فلما انفضح أمر المؤامرة أصرّ عثمان، علىٰ تنفيذ حكم الله في عمه جزاء اقترافه لجريمة موالاة أعداء الإسلام، والتآمر معهم ضد جماعة المسلمين[1].

ويشير المؤرخ ابن كمال باشا إلىٰ ذلك، بل يقرر أن دوندار أصبح مانعًا من القبض علىٰ والي «بيله جك» البيزنطي، لذا عُد باغيًا ونفذ فيه حكم الإعدام كحدٍّ شرعي[2].

فبشهادة معاصر الحادثة مع تدوين البدليسي لها ضمن المحامد وما قرره كمال باشا، يتضح لنا أن هذه الحادثة نقطة بيضاء ووقفة شماء شامخة تسجَّل في حسنات عثمان بن أرطغرل، إذ أكّد من

(١) من مقال بعنوان: «أيها المؤرخون: لا تظلموا العثمانيين المسلمين» بقلم: زياد محمود أبو غنيمة، مجلة «الأمة» القطرية، السنة الخامسة، العدد ٥٣، جمادىٰ الأولىٰ، ١٤٠٥ هـ، ص ٧٥.

(٢) الدولة العثمانية المجهولة (ص٦١).

خلال حرصه علىٰ تطبيق شرع الله في عمه علىٰ صدق التزامه بالإسلام،وصدق خضوعه لحكمه، وصدق تفضيله لوشيجة العقيدة وارتباطه بها فوق وشيجة الدم والقرابة.

وهذا الذي يتماشىٰ مع سيرة عثمان والتزامه الصادق بالإسلام، عبادةً، وخلقًا، وتواضعًا، وما نقلته المصادر عن توقيره الشديد لعمه الشيخ الكبير دوندار، فلا يمكن قتله لمجرد معارضته له في الرأي.

واستمر عثمان في مسيره نحو غزو الأراضي البيزنطية، وكانت سياسة عثمان قبل الغزو تعتمد علىٰ أسلوب تهديد المناطق التي سوف يصلها، لذلك كان يخيّر حكام المناطق البيزنطية بين الإسلام أو الجزية أو الحرب[1]، وقد أسلم بعض حكام المناطق، ودفع بعضهم الجزية، أما الذين قرروا الحرب فهم كثيرون.

***

(١) زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، دار الفرقان للنشر والتوزيع – عمان – الأردن، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، ص٣١ .

الحشد البيزنطي ضد عثمان

كانت الفتوحات التي تمت في الفترة الأخيرة كفيلة بسيطرة العثمانيين علىٰ الطرق البرية وقطع تواصل البيزنطيين بين كل من بورصه وإزنيك. وقد لفت الغازي عثمان الأنظار إليه بشدة بعد قيامه بمحاصرة مدينة إزنيك التي كانت أكبر وأكثر تحصينًا من بقية المدن التي قام بفتحها حتىٰ ذلك الوقت.

فقام حاكم بورصه بدعوة حكام كل من أترانوس وكيستِل[1] وكيتة لاجتماع عاجل، وخاطبهم بالقول: «هؤلاء الأتراك قدِموا من أصقاع الدنيا، واستقروا هنا، واتخذوا من أرضنا موطنًا لهم. فيما اكتفينا نحن بمراقبتهم، وإن بقينا نواصل المراقبة بعد التطورات الأخيرة، فلن يمر وقت طويل قبل أن نندم جميعًا. لقد حان وقت طردهم من هذه الديار...».

وبعد أن تشاور الحكَّام فيما بينهم اتفقوا علىٰ التحرك المشترك من أجل التخلص من الخطر التركي المحدق بهم. كما أن الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الثاني[2] أيضًا وبسبب إدراكه للعواقب الوخيمة

(١) منطقة تابعة لمحافظة بورصة التركية.

(٢) أندرونيكوس الثاني باليولوج كان إمبراطورًا بيزنطيًّا حكم من ١٢٨٢ حتىٰ سنة ١٣٢٨م.

في حال سيطرة العثمانيين علىٰ إزنيك، قام بإرسال القائد «جورجيوس موزالون» قائد حرس الإمبراطور علىٰ رأس ألفي جندي، لينضموا إلىٰ الحكام المتحالفين في مواجهة الغازي عثمان[١].

معركة قويون حصار (بافيوس/ pafeus):

التقىٰ الجيشان؛ الجيش العثماني الذي تقدره بعض الروايات بـ(٥٠٠٠)، وجيش التحالف البيزنطي في موقع جنوب بحيرة إزنيك يقال له قويون حصار **Koyounhissar**[٢] ويُطلَق عليها بافويوم **Baphoeum** من قبل البيزنطيين، واضطر الإمبراطور إلىٰ طلب المساعدة من قوات «اللان»[٣]. المرتزقة في مقابل وعدٍ باستقرارهم داخل الإمبراطورية فجاءوا في حوالي عشرة آلاف نفسٍ بأولادهم ونسائهم[٤]، وتولىٰ قيادة جيوش اللان ابنه ميخائيل التاسع[٥].

---

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٩. شيمشيرغيل، مرجع سابق.

(٢) تنطق «كُيُون» وتقع شمال شرق بورصه في شمال غرب الجمهورية التركية حاليًا.

(٣) **اللان:** قبائل من الفرس انتشرت بين نهري الفولجا والدانوب في القرن الثالث الميلادي. **انظر:** أبرار كريم الله، «من هم التتار» ترجمة: رشيد رحيم الصبروتي، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ١٢١.

(٤) وذلك وفقًا لرواية «أستروجروسكي»، **انظر:** Ostrogorosky: Historg , P438. بينما ذكر «ليبوه» أنهم حوالي ستة عشر ألف من الرجال والنساء والأطفال، **انظر:**
Lebeau: Histoire Txv III p.440
وذكر «فنلاي» أن عددهم ثمانية ألف فقط، **انظر:** Finlay : History. vol. 3 p 384.

(٥) زُبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطىٰ: بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون. دار الفكر العربي. ص ١٥٥.

ولأول مرة يواجه عثمان جيشًا بيزنطيًّا نظاميًّا[1]، وإزاء الهجوم القوي الذي شنه الأتراك عليهم، لم يبدِ المتحالفون سوىٰ مقاومة بسيطة، قبل أن يتعرضوا للهزيمة في وقت سريع. كما يؤكد ذلك المؤرخ البيزنطي باتشميرز **Pachimeres** المعاصر لتلك الفترة، الذي ذكر هزيمة بيزنطة علىٰ يد من أطلق عليه أتمان/ **Atman**[2].

وثارت قوات «اللان» لعدم وفاء الإمبراطور بدفع رواتبهم، وقاموا بسلب ونهب ما كان أمامهم دون أن يفرقوا بين عدو وصديق، حتىٰ اضطر ميخائيل أن يدفع لهم مكافآت مالية، واشترطوا رحيلهم خلال ثلاثة أشهر إلىٰ بلادهم، وبالفعل رحلوا بعد هذه المدة وتركوا ميخايل وجيشه في حالة من الرعب والقلق[3].

وقد فر الجنود البيزنطيون للنجاة بأنفسهم، وتشتت شملهم حيث اتجه معظمهم إلىٰ إزمير للاحتماء بقلعتها.

ويذكر المؤرخ البيزانطي جورج باخيميرس:

أن الجثث كانت تغطي الحقول وأشلاء القتلىٰ كانت مبعثرة في كل مكان.. وأن الجيش البيزانطي أصبح ما بين قتيل أو

---

(١) تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص ٣٨.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الازدهار) وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة ص ٨٦، د. سيد محمد السيد محمود، مكتبة الآداب، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٧م.

(3) Gregoras: Historiae Vol. I pp 205-207.

أسير[1]. أما «موزالون» فبالكاد استطاع النجاة من قبضة جنود السلاف المأجورين. وقد استشهد «آي دُوغْدُو» وهو ابن أخي الغازي عثمان في هذه المعركة التي وقعت في السابع والعشرين من يوليو عام ١٣٠١م[2].

وعلىٰ إثر هذا الانتصارات والفتوحات، اكتسب الغازي عثمان شهرة منقطعة النظير بين التركمان وبقية الممالك والإمارات المتاخمة لحدوده والمجاورة له. وتحولت شواطئ بحر مرمرة، إلىٰ ساحة لتحركات الأتراك ونشاطهم. واعتبر كل من النشري وإدريس البدليسي وكمال باشا زاده، النصر الذي حققه الغازي عثمان في معركة قويون حِصار، هو البداية الفعلية لاستقلاله بالسلطة[3].

ويُعلل البروفيسور خليل إينالجك ذلك بأنَّ تلك المعركة منحت الإمارة العُثمانيَّة خصائص وسمات الدولة المُستقلَّة الفعليَّة القابلة للحياة[4].

---

(١) السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية من استعادة البيزنطيين للقسطنطينية، تأليف: أحمد رشاد محمد ، ص ١٢٠، بيان للترجمة والنشر، ٢٠٢٠م.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق. تاريخ الأتراك العثمانيين، تأليف: إدوارد شيفرد كريسي، ص ٣٨.

(٣) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٤) إينالجك، خليل إبراهيم، تاريخ الدولة العُثمانيَّة من النُشوء إلىٰ الانحدار، ترجمة: مُحمَّد م. الأرناؤوط ص ١٥، دار المدار الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولىٰ: ٢٠٠٢م.

معركة دينبوز:

باتت كل من بورصه وكيتة وأترانوس وكاستل هدفًا لفتوحات الغازي عثمان، بعد أن اشترك حكامها في التحالف المعادي له وقاموا بمحاربته. وهكذا بدأ في العام التالي بالتحرك ضد هؤلاء الحكام المتحالفين مجددًا، فالتحموا معه في معركة سُميت «دينبوز» أو «دينباز» أو «ديمباز»حيث ألحق بهم الهزيمة للمرة الثانية في السادس والعشرين من أغسطس عام ١٣٠٢م، وانتصر العثمانيون وتمكنوا من فتح «كستل» و«مادنوس»، وقُتل أميراهما في المعركة. وتمكنوا من السيطرة علىٰ قلعة كيتة، وأُسر أميرها وتضاربت الروايات حول مصيره، فأشارت إحدىٰ الروايات أنهُ أُعدم أمام قلعته ثأرًا لآي دوغدو الذي استشهد في معركة قويون حِصار، فاستسلمت حاميتها للعثمانيين؛ بالمُقابل أشارت رواية أخرىٰ أنه فرَّ من ساحة المعركة والتجأ إلىٰ «أولوباد»[1]، فلحق به العثمانيون وضربوا الحصار عليها، وأيقن أميرها أن لا قدرة له علىٰ قتال العثمانيين، فاستسلم لهم وأبرم مع عثمان أول معاهدة عسكرية في تاريخ الدولة العثمانية سلَّم بموجبها القلعة بشرط ألَّا يمُرّ من فوق الجسر الموجود أمام البلدة إلىٰ داخلها أي عثماني

(١) منطقة تابعة لمحافظة بورصة التركية.

مسلم، فأجابه عثمان إلىٰ طلبه[1].

ومن ثم وضع حامية من جنده في قلعة أولوباد التي تم فتحها فيما بعد، وفي هذه الفترة، تم فتح جزيرة أيدوس التي تقع وسط بحيرة أولوباد سِلمًا، وذلك بجهود «كارا علي» ابن «أيكوت آلب»، وكمكافأة علىٰ جهود المحارب الشاب «كارا علي»، فقد زوجه الغازي عثمان ابنة قسيس الجزيرة الجميلة[2].

أول هزيمة أمام بيزنطة!

أثارت حركة الفتوحات العثمانية التي اتسعت دائرتها لتشمل حدود كل من بورصه، إزنِيك وإزْميت، مخاوف البيزنطيين وسببت لهم قلقًا بالغًا، فبيزنطة تخشىٰ احتلال آخر ممتلكاتها في الشاطئ الأسيوي والتي علىٰ مرأىٰ من العاصمة نفسها، فبفقد تلك الأقاليم تعتبر بيزنطة قد فقدت آسيا الصغرىٰ إلىٰ الأبد[3]. ولأنهم أدركوا عجزهم عن مواجهة العثمانيين وحدهم، فقد بدءوا بالبحث عن حلفاء لصد هذا الخطر الذي بات يتهدد حدودهم ووجودهم. فوجدوا ضالتهم في المغول الإلخانية الذين بدوا لهم

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٩-١٠٠.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٣) زُبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطىٰ: بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون ص ١٥٥.

الشريك الأمثل، حيث كان هؤلاء يسعَون للقضاء علىٰ نفوذ السلاجقة الروم في منطقة الأناضول لتصبح تحت سيطرتهم دون منازع. وهكذا فقد قام الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الثاني بتزويج أخته ماريا من سلطان الإلخانية محمود غازان خان، مقابل تعهد الأخير بتقديم العون له. ولكنه توفي فيما كانت الأميرة ماريا في الطريق، ورغم أن الأميرة قد تزوجت من الخان محمد خودابندا أولجايتو خان[1] فإن أهداف الإمبراطور البيزنطي لم تتحقق بعد. فنتيجة الخلافات والانقسامات الداخلية في دولة الخان، ونتيجة حروبه مع مماليك مصر، لم تتح له الفرصة لمساعدة الإمبراطور البيزنطي[2]،[3].

(١) ثامن ملوك الإلخانية حكم بين عامي ١٣٠٤م : ١٣١٦م، وهو ابن حفيد هولاكو، وابن أرغون، وشقيق وخليفة محمود غازان علىٰ عرش الإلخانية.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٣) كانت الحروب في ذلك الوقت دائرة بين المماليك والإلخانية المغول في مدٍ وجزر شديدين، وفي ٢ رمضان ٧٠٢هـ المُوافق فيه ٢٠ أبريل ١٣٠٣م، اشتبك المغول والمماليك في معركةٍ طاحنة علىٰ تُخوم دمشق عُرفت بمعركة «شقحب» أو معركة «مرج الصفر»، انتصر فيها المماليك وهُزم المغول هزيمة كبيرة. كان لهذه الهزيمة أثر كبير علىٰ الأوساط السياسيَّة والقياديَّة المغوليَّة، فقد أثنت غازان عن أي موضوع آخر، وقيل: إنه اغتمَّ غمًّا عظيمًا حتىٰ مرض وسال الدم من أنفه، وغضب علىٰ قادة جيوشه وأمر بإعدام بعضهم وإذلال آخرين. ولم يعش بعد ذلك طويلًا، فتوفي يوم ٦ شوَّال ٧٠٣هـ المُوافق فيه ١١ مايو ١٣٠٤م.

انظر: «السلوك لمعرفة دول الملوك»، المقريزي ٢/ ٣٥٦ ، دار الكتب العلميَّة، بيروت ١٩٩٧م، «مماليك مصر والشام»، شفيق مهدي، ص ١٠٤، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠٠٧م.

بعد فشل الحلف مع المغول، عرض «**روجر دي فلور**» (**Rogerde Flor**)[1]، قائد جماعة (***Gran Companyia***) أو الشركة الكبرىٰ، وكانوا من المُرتزقة الكتلان[2] الذين أصبحوا عاطلين عن العمل بعد إبرام صُلح كالتابيلوتا بين مملكتيّ أرغون والآنجو (فرنسا)[3]، عرض «**روجر**» خدماته وخدمات رجاله ضدَّ المُسلمين، فقبل الإمبراطور العرض بِكُل ارتياح، ووصل الكتلان القُسطنطينيَّة سنة ١٣٠٣م، واستقبل الإمبراطور قائدهم بالتَّرحاب، وكان يصحبه ٦٥٠٠ من رجاله، ووعد بِمنحهم مُرتَّب أربع شهور وكذلك منح «**روجر دي فلور**» لقب قيصر. ومع بداية سنة ١٣٠٤م، عبر جماعة الكتلان إلىٰ آسيا الصغرىٰ وتقدموا إلىٰ مدينة فيلادلفية التي كان يُحاصرها العثمانيون، واستطاعوا هزيمتهم وفك الحصار عن المدينة.

وقد أثبت هذا الانتصار أن بيزنطة لو تيسَّر لها القُوَّات العسكريَّة الكافية والإمكانيَّات الماديَّة الضروريَّة لأمكن لها أن تقضي علىٰ

(١) دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، حسين محمد ربيع، ص ٢٩٧، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.

(٢) الكتلان أو القطلان، نسبة إلىٰ قطلونية/ كتلونية (كاتالونيا) إقليم إسباني من أهم مدنها برشلونة التي تعد قاعدة الإقليم.

(٣) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، محمود سعيد عمران، ص ٣٥٢، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية –٢٠٠٠م.

القوة العثمانية الناشئة، ولكن ما كان لديها المال ولا الجيوش[1].
لكن هؤلاء المرتزقة حاولوا الاستقلال بالأراضي التي استردوها من الأتراك وضايقوا الأهالي[2]، ولم يلبثو أن تركوا حرب المسلمين وأغاروا علىٰ القرىٰ والمدن والأديرة البيزنطية للسلب والنهب في تراقيا ومقدونية وغالبولي وغيرها، مما سبب للدولة البيزنطية الكثير من المتاعب والعناء، وانشلغوا بالتصدي لهم، فتقاتل الحُلفاء فيما بينهم حتىٰ سنة ١٣١٠م[3]. مما أفسح المجال أمام السلطان عثمان ليُتابع توسعه علىٰ حساب الروم[4].

فتح يني شهر وما حولها:

حوَّل عثمان أنظاره نحو حدود إمارته الجنوبية بعد أن استتب له الأمر شمالًا ووصل إلىٰ البحر الأسود وبحر مرمرة وهزم جيوش الإمبراطورية البيزنطية واطمأنَّ إلىٰ عدم قُدرتها علىٰ مُقارعته قريبًا. فهاجم البلدات والقُرىٰ والحصون الرومية المحيطة بِمدينة «يني شهر» تمهيدًا لفتح هذه المدينة. فأرسل حملةً كبيرة إلىٰ قلعة

(١) زُبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطىٰ: بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون. دار الفكر العربي. ص ١٥٥ – ١٥٦.
(٢) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، محمود سعيد عمران، ص ٣٥٢.
(٣) دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، حسين محمد ربيع، ص ٢٩٧–٢٩٨.
(٤) تاريخ الدولة العثمانية (النشأة – الازدهار) د. سيد محمد السيد محمود، ص ٨٦.

«يوند حصار» ففتحها وضمَّها إلىٰ أملاكه، ثُمَّ انقضَّ علىٰ يني شهر ودخلها منتصرًا واتخذها عاصمةً له مُؤقتًا[1]، وعمل علىٰ تحصينها وتقوية أسوارها، ثُمَّ راح يُرسل الحملات ضدَّ المدن البيزنطيَّة، ففتح قلاعًا عدَّة منها: لفكه، وآق حصار، وقوج حصار، وحصن كته، وحصن كبوه، وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكاري[2]، وقلعة مرمرة جق، وقلعة كوبرىٰ حصار. والحقيقة أن فتح القلاع سالِفة الذِكر رمىٰ إلىٰ ضرب حزام أمني علىٰ يني شهر، فأحاطها عثمان بذلك بسلسلة من الحصون الأمامية لدرء أي خطر عنها. كما فتح جزيرة كالوليمني الواقعة علىٰ بحر مرمرة علىٰ مقربة من خليج مودانيا، الأمر الذي أدَّىٰ إلىٰ سيطرة العثمانيين علىٰ الطريق المائي الذي يربط بورصه بالقُسطنطينيَّة، واستولىٰ علىٰ قلعة تريكوكا، الواقعة بين بورصه وإزنيك والتي تُشرف علىٰ طريق المُواصلات بين هذه الأخيرة وإزميد، فأطلَّ العثمانيون بذلك علىٰ البوسفور[3].

(١) مانتران، روبير؛ ترجمة: بشير السباعي؛ بيلديسينو، إيرين (١٩٩٢). تاريخ الدولة العثمانيَّة، الجزء الأول. القاهرة – مصر: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. ص ٢٣.

(٢) القرماني، أحمد بن يوسف بن أحمد؛ تحقيق: بسَّام عبد الوهَّاب الجابي (١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م). تاريخ سلاطين آل عثمان (الطبعة الأولىٰ). دمشق – سوريا: دار البصائر. ص ١١.

(٣) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، ص ٣٠.

تُشير إحدىٰ الروايات أيضًا إلىٰ أن عثمان حمل خلال هذه الفترة علىٰ جزيرة رودس لقتال فرسان القديس يوحنَّا الذين تمركزوا بها بعد نهاية الحروب الصليبية وأخذوا يغيرون علىٰ الشواطئ الإسلامية ويعتدون علىٰ سفن المسلمين التجارية، وأنه لم يُوفَّق في فتحها، علىٰ أن المصادر العثمانية لا تذكر شيئًا عن هكذا حملة.

وهكذا فقد كان عام ألف وثلاثمائة وثمانية بداية لبزوغ عصر جديد في الأناضول. ففي هذا التاريخ توفي السلطان السلجوقي مسعود الثاني بن كيكاوس الذي كان يملك من السلطة اسمها فقط دون صلاحيات فعلية، وبذلك أصبح عرش الأناضول خاليًا يبحث عن مرشح جديد للجلوس عليه. وهذا ما جعل معظم إمارات الأناضول تستغل هذه الظروف لتعلن استقلالها في الحكم. وبحسب بعض المصادر فإن استقلال العثمانيين أيضًا يعود إلىٰ هذا التاريخ. وقد ترتب علىٰ استقلال إمارات الأناضول في الحكم دون التبعية للسلطنة السلجوقية، تشرذمها وهذا ما سيتطلب جهودًا حثيثة ومضنية علىٰ طريق توحيدها مجددًا فيما بعد[1].

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

إعادة ترتيب البيت وبناء الدولة

كانت الفترة الممتدة إلىٰ عام ١٣٠٨م، فترة هدنة توقف في خلالها الغازي عثمان عن حركة الفتوحات التوسعية التي قام بها. وذلك لأسباب عدة، منها: إعادة تنظيم المناطق التي باتت تحت سلطته إداريًا وعمرانيًا، والأهم من ذلك هو التحصن لاعتداءات المغول الذين أصبحوا يشكلون خطرًا يُحدق بكافة مناطق الأناضول.

فقد قام وعلىٰ عادة خانات الأوغوز وسلاطنة السلاجقة، بتوزيع المناطق التي تم فتحها علىٰ أشقائه وأبنائه وقادة جيشه ورجالاته، فمنح قَرَاجَه حِصار لابنه أورخان، وإسكي شهر لغوندوز آلب، ويني حِصار لحسن آلب، وإيناكول لتورغوت آلب، أما خراج وأموال منطقة بيله جيك وما حولها فقد خصصه لحميه وشيخه أده بالي، وزوجته مال خاتون، ولمصاريف الدراويش وطلبة الشيخ ومن يقصده من فقراء ومحتاجين. وقد ترك مال خاتون وابنها علاء الدين في رفقة والدها الشيخ أده بالي في بيله جيك، فيما انتقل هو إلىٰ يني شهر مركز حكمه الجديد[١]، فبنىٰ فيها مساجد وحمامات ورباطات للغزاة[٢].

---

(١) السابق.

(٢) تواريخ ملوك آل عثمان ص١٣٦. «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٧.

وبعد حزمة هذه الإجراءات الاستقلالية، قام بصك اسمه علىٰ النقود كخطوة فعلية أخرىٰ علىٰ هذا الطريق[1].

طوَّر عثمان بن أرطغرل نظام المؤسسات في الدولة، وهي عبارة عن زوايا وتكايا بعد أن ازداد عهد الدراويش والمجاهدين والمحاربين، فجعل لها نظامًا بدعم الشيخ جلال الدين الرومي، والشاعر يونس أمره وآخي أوران[2].

واعتمد في سلطنته علىٰ البناء الإيماني الداخلي، والتربية الروحانية لكل أبناء سلطنته، فكانت الأجواء بينهم مفعمة بالإيمان التي تقودهم إلىٰ مواجهة الأعداء، تَسْري روح التزكية والبحث عن الشهادة في أرواح المجاهدين، ولعبت الطريقة النقشبندية -التي انتشرت في الأناضول منشقة من الطريقة اليسوية- دورًا كبيرًا في تأسيس الدولة العثمانية، وهي عبارة عن مؤسسات دينية ولديها اكتفاء ذاتي لإعداد المجاهدين وتربيتهم تربية إيمانية والذود عن الوطن، حيث يوجد في التكايا الطباخ، والخباز، ومقدم الطعام والشراب، ومنهم من يهتم بالحراسة، والفنانون والرسامون والقائمون علىٰ خدمة الشيخ. ولديهم مكان لتدريب المجاهدين

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٢) كولز، بولز، العثمانيون في أوروبا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م، (ص٢٦).

علىٰ فنون القتال والحرب، وتهتم بالدفاع عن أرض الوطن في وقت الحروب، وتقوم بالوقوف بجانب المظلوم إلىٰ أن تتم نصرته مهما كان جنسه ووطنه[1].

كانت التربية الصوفية التي تدعو للزهد والجهاد في سبيل الله ونصرة المظلوم هي المحرك داخل أوساط القبيلة، وكان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلىٰ تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم[2]، وهذا التزاوج بين الصوفية والمقاتلين، أعطىٰ الشعب طبيعة خاصة متميزة عن غيره من الشعوب في المنطقة، وهي الطبيعة العسكرية الدينية، مع ما فيها من قصور في العلم الشرعي كما أشرنا آنفًا.

وكانت الجندية والتدرج في سلسلة المراتب القيادية تسري في صفوفهم، وهذا النظام هو الأساس في المجتمع التركي القديم، ويستند علىٰ النظام العسكري، وهو عبارة عن مخيم عسكري كبير فيه جيشٌ متدربٌ يستطيع الوقوف أمام أكبر جماعات الأعداء في سبيل الذود عن الحرية والاستقلال أو بقصد الفتوحات. ويرجع

(١) عبد العال، الدكتورة بديعة محمد، النقشبندية نشأتها وتطورها لدىٰ الترك، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩م، (ص١١).

(٢) التصوف في مصر أبان العصر العثماني، (ص١٥٤).

سبب تنظيم الأتراك لصفوفهم بسبب مواجهتهم منذ فجر التاريخ للصينيين الذين يفوقونهم عددًا، واضطرارهم إلىٰ مجابهتهم في معركة حياة أو موت يتكون من طبقة الأشراف الذين هم جزء من المجتمع، وأغلبية الضباط من الأشراف، ويتكون نظام الوحدات العسكرية من نظام العشرات، ينقسم الجيش الذي يتكون بأجمعه من الخيّالة إلىٰ أقسام مؤلفة من ١٠، ١٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠٠ شخص، يسمىٰ القسم الكبير المؤلف من عشرة آلاف عسكري، والذي يقوده الأمراء (**Tumen**) وهذه الكلمة تستخدم اليوم في الجيش التركي كما يذكر الكاتب يلماز أوزتونا[1].

واهتم عثمان كذلك بالحرفيين وقد كونوا طائفة لا يستهان بها؛ وهم الصُّنَّاع والزُّرَّاع وأصحاب الحرف المختلفة، والتجار في شتىٰ المجالات، فقد وجدوا في هذه الإمارة الناشئة فرصة عمل جيدة، خاصة بعد فتحها لمدينة أسكي شهر الكبيرة، وبعد توسُّع عثمان في الأراضي البيزنطية ذات الكثافة السكانية العالية، ولقد كان الاهتمام بهذه الطوائف من الحرفيين مفيدًا للغاية في تكوين شكل طبيعي للمجتمع، فلم يعد حاله مثل حال الثغور النائية التي تعتمد علىٰ طائفة العسكر في الأساس؛ إنما صارت إمارة طبيعية

(١) أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، (ص٢٦).

تعيش فيها كل طوائف المجتمع، وهذا ساعد علىٰ الاستقرار في الإمارة وعدم حاجة الناس للهجرة منها بحثًا عن شيء منقوص، أو غاية غير موجودة.

ولقد تغلغلت الطرق الصوفية في هذه الطائفة أيضًا كما تغلغلت في الجيش، وأعطت بالتالي لهؤلاء الحرفيين شكلًا دينيًّا متميِّزًا، وهذا كله لا شك انعكس علىٰ شكل الإمارة.

واهتم عثمان بتنظيم وترتيب هؤلاء الحرفيين، فكوَّن لهم روابط تربط كل طائفة منهم، فكانت بمثابة النقابات في زماننا المعاصر، وكان لكل طائفة رئيس، ولها نظام وهيئة، وقوانين وأعراف، كما كان ينضم لكل طائفة أحد مشايخ الصوفية في المنطقة ليؤسسوا جميعًا رابطة تجمع روابط الأخوة الإسلامية بين أفراد كل حرفة، وعُرِفت لذلك هذه الروابط بـ«الروابط الآخية»، وكانت الزوايا والتكايا محل اجتماعاتهم وكانت الزوايا مجموعة في مركز واحد، ولهم نظام داخلي يشكل دستورًا يحتوي٧٤٠ فِقرة، وكان لكل حِرفة أو مهنة رئيس يطلق عليه اسمه «أهي بابا» «الآخي الوالد»، وكان علىٰ أفراد الحرفة الواحدة التقيد بأنظمة المؤسسة في كل ما يخص قواعد عملهم وأزيائهم وتصرفاتهم تحت رعاية ومراقبة

رئيسهم، وقد يطلقون علىٰ الرئيس اسم الشيخ.. ويعود الفضل في تأسيس تلك الآخيات إلىٰ «آخي أوران»[1].. ولا شك في أن هذه الروابط كان لها دور مهم في عمارة إمارة عثمان الجديدة، وإفادتها بوظائف اجتماعية نهضوية فريدة، وقد أعجب بها الرحالة المسلم «ابن بطوطة» لما زارها في رحلته لبلاد أورخان بن عثمان، فيقول عنها:

«ذكر الأخيّة الفتيان: واحد الأخية أخي علىٰ لفظ الأخ إذا أضافه المتكلّم إلىٰ نفسه، وهم بجميع البلاد التّركمانيّة الروميّة في كل بلد ومدينة وقرية، ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالغرباء من الناس وأسرع إلىٰ إطعام الطعام وقضاء الحوائج، والأخذ علىٰ أيدي الظلمة، وقتل الشّرط ومن لحق بهم من أهل الشرّ.

والأخي عندهم: رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبّان الأعزاب والمتجرّدين ويقدّمونه علىٰ أنفسهم، وتلك هي الفتوّة أيضًا، ويبني زاوية ويجعل فيها الفُرُش والسُّرُج، وما يحتاج إليه من آلات، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معائشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام إلىٰ غير ذلك مما ينفق في الزاوية، فإذا ورد في ذلك اليوم مسافر علىٰ البلد

(١) الدولة العثمانية المجهولة (ص٥٧).

أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم، ولا يزال عندهم حتىٰ ينصرف، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم علىٰ طعامهم فأكلوا وغنّوا ورقصوا وانصرفوا إلىٰ صناعتهم بالغدوّ، وأتوا بعد العصر إلىٰ مقدّمهم بما اجتمع لهم.

ويسمّون بالفتيان، ويسمّىٰ مقدّمهم كما ذكرنا الأخي، ولم أر في الدنيا أجمل أفعالًا منهم، ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وإصفهان إلّا أنّ هؤلاء أحبّ في الوارد والصادر وأعظم إكرامًا له وشفقة عليه»[1].

هكذا تشكَّل شعب الإمارة في بداية تكوينها؛ لكن تبقىٰ عنصر مهم فعَّال لا بد من الإشارة إليه، وكان له دور كبير في تكوين الشعب، وهم أهل البلاد الأصليون من النصارىٰ، وتشهد الكتب الغربية بحسن تعامل عثمان وآله من بعده بالسكان النصارىٰ الذين سرعان ما اندمجوا في الشعب الجديد؛ بل وارتبط كثير من الحرفيين فيهم بالروابط الآخية الموجودة في الإمارة، كلٌّ علىٰ حسب حرفته، وهذا قاد إلىٰ تجانس كبير في المجتمع، ولم تحدث أي أنواع من الفتن الطائفية التي قد تنمو في مثل هذه المجتمعات

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ، ٢/ ١٦٣.

المختلطة، وتدريجيًّا، ومع مرور الوقت التحق جانب كبير من هؤلاء النصارىٰ بالإسلام، حتىٰ صارت في غضون عقود قليلة الأغلبية الساحقة من الشعب من المسلمين.

ولقد كان النهج الذي اتبعه عثمان لتحويل عشيرته إلىٰ دولة قوية وذات سيادة مستقلة ونفوذ حقيقي، هو العدالة، وهناك الكثير من الأحداث التي تخللت حياته، ورسخت هذا المبدأ كجزء أساسي من مسيرته في السلطة.

ففي المدن التي قام بفتحها، كانت النسوة المسلمات وغير المسلمات أيضًا يقمن بالتبضع في الأسواق من التجار، دون أن يقوم أحد بمضايقتهن أو التعرض لهن بسوء. وفي السوق الذي كان يقام بالقرب من حمام مدينة أسكي شهر، قام أحدهم بشراء بضعة كؤوس من أحد باعة المدينة الذي ينتمي لروم بيله جيك، ولم يدفع الثمن. فقام البائع بالتوجه إلىٰ الغازي عثمان ليشتكي الرجل. فاستدعاه عثمان وأمره بدفع ثمن البضاعة التي أخذها، وزجره بشدة. ومن ثم أرسل المنادين في الأسواق والذين أعلنوا أن كل من يتعرض لظلم أو اعتداء سواء أكان مسلمًا أم غير مسلم، فعليه أن يتوجه إلىٰ الغازي عثمان ويتقدم بالشكوىٰ[1].

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

وفي مدينة قَرَاجَه حِصار التي أقطعها عثمان ابنه أورخان، كان بخارجها ينعقد سوقٌ في يوم الجمعة، وبينما الناس في بيعهم وشرائهم هجمت عليهم جماعة من التتر يسمون «چوادار» ونهبوا جميع ما كان بالسوق من متاع وحيوان وغيره، ولم يكن أورخان حاضرًا، فلما بلغه الخبر ركب من حينه ومن وجد من الغزاه والمجاهدين واقتفوا أثر القوم ولحقوهم بمكان يسمىٰ «اينجا حصار» وأحاطوا بهم قتلًا وأسرًا وأسروا منهم خلقًا كثيرًا ، وجيء بمقدمهم أسيرًا واسترد جميع ما أخذوه من السوق وردوه إلىٰ أهله، ورجع أورخان بهذا الظفر العظيم فاستقبله الأهالي بالفرح والدعاء له والثناء عليه وفرح بذلك عثمان[1].

وفي حادثة أخرىٰ في مدينة قَرَاجَه حِصار، قدم إلىٰ عثمان بن أرطغرل أحد رعاياه، واقترح عليه قائلًا: «أريد شراء إتاوة سوق المدينة منك». فسأله عثمان: «وما هي الإتاوة؟».

فأوضح له الرجل: «إنها ضريبة مالية تفرض علىٰ كل من يعرض بضاعته في السوق».

فعاد عثمان يسأله: «وما شأنك بالناس الذين يسترزقون هنا لتأخذ منهم أموالًا وإتاوات؟»

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠٤-١٠٥.

فرد عليه الرجل: «إنها عادة قديمة، حيث يأخذ الحاكم حصة مالية من كل بضاعة أو سلعة في السوق». وهنا ثار غضب عثمان وهو يخاطب الرجل قائلًا: «لم أسمع بأمر كهذا في كتابٍ أو نصٍّ دينيٍّ، ولا من أي من الشيوخ والعلماء الذين تتلمذت علىٰ أيديهم، وحضرت مجالسهم. فهل هو أمر من الله عز وجل، أم سنة رسوله الكريم؟ أم أنها عادة سنَّها بعض الحكام والسلاطين من ذوي النفوس الضعيفة؟!».

وحين أجابه الرجل: «إنها عادة جرىٰ عليها الحكام منذ القِدم». زاده غضبًا وحنقًا علىٰ هذا الرجل وزجره قائلًا: «اغرب عن وجهي، وإلا سينوبك مني ما لا تحمد عقباه، ما شأني بأموال الناس وأرزاقهم التي يكسبونها بجهدهم وعرق جبينهم؟ ولِمَ عليَّ أخذ ضريبة علىٰ ما ليس لي فيه شيء، يا هذا؟».

وقد اقترح عليه رجاله ممن حضروا هذا النقاش قائلين: «حتىٰ لو لم تأخذ إتاوة يا مولاي، فيجب دفع شيء لحرَّاس السوق، فهؤلاء يستحقون مقابلًا لجهدهم وتعبهم».

حينها اقترح الغازي عثمان عليهم نوعًا من الضريبة القليلة مقابل الحراسة فقال: «حسنًا، إن كان هذا رأيكم، فعلىٰ كل من يَبيع بضاعته دفع آكجتين (اسم العملة التي صكها عثمان) أما من لم يبع شيئًا، فلا تؤخذ منه أي ضريبة. وكل من منحته أرضًا أو

اقتطعت له إقطاعية، فلا يجوز لأحد أخذها منه دون سبب وجيه، حيث ستنتقل ملكيتها لأبنائه من بعده، وإن كان أبناؤه صغارًا، فتوضع تحت رعاية من يقوم علىٰ خدمتهم، حتىٰ بلوغ الورثة سن الرشد. وكل من يخالف هذا القانون، أو يحاول تعليم نسلي ممن سيتولون الأمر من بعدي، ما هو مخالف لذلك، فليذله الله سبحانه وتعالىٰ في الدنيا والآخرة معًا»[1].

وهكذا بدأ عثمان يكوِّن نواة الدولة الحضارية فاستوحىٰ نظامها من الدولة السلجوقية الرومية، سواء فيما يتعلق بالتقاليد أو بالتنظيمات أو بالحضارة الموروثة عن العالم الإسلامي[2]، فكان يعتمد علىٰ المؤسسات والنظم الإدارية لا علىٰ أعراف القبيلة كسابقيه، فمع مؤسسة المجاهدين أو الغزاة، ومؤسسة الحرفيين التي عرفت بالآخية، كانت هناك مؤسسة أخرىٰ للنساء تُعدُّ رافدًا مساعدًا للدولة، ذكرها المؤرخ عاشق باشا زاده في الحوليات العثمانية باسم «باجيان روم» أي: النساء المقاتلات في إمارات التركمان علىٰ الحدود ويمكن أن يعني أيضًا النساء المنتسبات إلىٰ التكايا[3].

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.
(٢) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين، (ص٣١).
(٣) الدولة العثمانية المجهولة، (ص٥٧).

وإن لم يكن لدينا معلومات وافية عن مؤسسة باجيان روم في عهد عثمان، إلا أننا نجد في القرن الخامس عشر في إمارة ذي القدر[1] عددَ السيدات المنتسبات للقوىٰ المسلحة بلغ المئة ألف، وفي رواية أخرىٰ الثلاثين ألف منتسبة[2].

وأضاف عاشق باشا زاده مؤسسة أخرىٰ أو لعل الأصح أن نقول مجموعة أو رابطة عرفت باسم: أبدلان روم؛ وهم جماعة من الدراويش المجذوبين الذين كانوا يشتركون في الحروب بجانب السلاطين بسيوف خشبية[3].

وقد ذكر لطفي باشا حكاية طريفة عن أحدهم في أثناء بعض المعارك، قال: فبينما كان الجنود البيزنطيون يقفون خرج عليهم درويش عارٍ ودعاهم إلىٰ الإسلام، وكان في يده سيف من الخشب، وعندما رأوه ضحكوا واستهزءوا به، وفي يوم آخر دعاهم مرة أخرىٰ، وكانوا سكارىٰ، فالتفوا حوله، وجعلوا يسخرون منه أيضًا، وقالوا له: «أنت تتكلم ونحن لا نسمع لك، فلماذا تقول؟

(١) إحدىٰ إمارات الأناضول وهي إقليم حدودي شبه مستقل تحت سيادة دولة المماليك بمصر، وكانت علىٰ علاقة طيبة مع العثمانيين، حيث تزوجت عدد من أميرات هذه الإمارة بأمراء وسلاطين الدولة العثمانية، إلىٰ أن سيطر عليها العثمانيون في أثناء حربهم مع الصفويين في عهد سليم الأول.

(٢) كوبر لي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م، (ص١٦٤).

(٣) الدولة العثمانية المجهولة، (ص٥٧).

وليس معك سلاح»! فقال الدرويش: كيف لا يوجد معي سلاح والسيف في يدي؟ وإن لم تسلموا سأقتلكم بهذا السيف!

فضحكوا جميعًا، وتقدم أحدهم فقال للدرويش: «تعالَ إليَّ واضربني بالسيف؛ لنرىٰ هل سيقطعني سيفك أو لا؟».

فدعا الدرويش ربَّه وتضرع إليه وضربه بسيفه ضربةً واحدةً، فقسم السيف الخشبي ذاك الرجل نصفين!!

فضحك الباقون وهم لا يتبينون المشهد من بعيد، وقالوا: «سيفك قاطع وحاد، هل ستحاربنا به؟»، فقال لهم: انظروا إلىٰ صديقكم قد مات» فذهبوا إليه فوجدوه مُلقًىٰ علىٰ الأرض فِلقتين، فصدق بعضهم الدرويش ودخل الإسلام، وهرب آخرون[1]. وذُكر أن هذا الدرويش اسمه «عبابوش» أصبح قبره مزارًا هناك فيما بعد.

ويمكن أن نعتبر أن هذه الطائفة كانت تعيش في حالة من الجذب والهرطقة إلا أن عثمان وأتباعه لم يرفضوهم في المجتمع بل أشركوهم في شئونهم حتىٰ في الجهاد والدعوة رغم بساطة حالهم وسطحية فكرهم وغرابة أفعالهم، وذلك كنوع من الإعانة والإغاثة المجتمعية، ولا شك في أن حالة التصوف المنتشرة في المجتمع وقتئذ جعلت قبولهم أمرًا مستساغًا بل أضفت عليهم الكرامات

(١) تواريخ آل عثمان (ص١١٢-١١٣).

والولاية، وليس مستبعدًا أن يكون لبعضهم بعض الكرامات والخوارق يجريها الله بقدرته ولحكمته.

حُلم القسطنطينية

بالرغم من أن عثمان غازي كان مشغولًا بإتمام تأسيس دولته إلا أن أكبر هدف لديه كان التقدم صوب القسطنطينية «إستانبول» لينال بشارة النبي ﷺ فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية، ولَنِعْمَ الأميرُ أميرُها ولَنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيش»[1] وهذا الحديث علىٰ ضعفه متداول بين الأتراك، وهو منقوش علىٰ الحجر في جامع آيا صوفيا بإستانبول.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٥)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤/ ٤٢٢)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٨)، برقم: (١٢١٦)، و(٢/ ٨١) برقم: (١٧٦٠)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٨١)، و«الصغير» (١٤٨٢). والحديث صححه الحاكم والذهبي، وضعفه الألباني والوادعي وشعيب الأرناؤوط.

والتبشير بفتح القسطنطينية ثابت من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب؛ إذ سُئِل رسول الله ﷺ: أي المدينتينِ تفتح أولًا: قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا**» يعني: قسطنطينية»؛ أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٣٢٩)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٦٠٧)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٣٦٧)، والدَّارمي في «سننه» (١/ ١٢٦)، والحاكم (٤/ ٤٢٢ - ٥٠٨ - ٥٥٥)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «الزوائد» (٦/ ٢١٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل، وهو ثقة. وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «المسند» (٦٦٤٥)، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧)، ونقل تصحيح الحاكم والذهبي، ثم قال: وهو كما قالا.

وبذلك كان فتحها هو غاية المسلمين وهدفهم لقرون عدة، من أجل نيل هذا الشرف العظيم، ومن ضمنهم الأتراك الأوغوز. حتىٰ غدت الفكرة بالنسبة لقادتهم وجنودهم كـ (التفاحة الحمراء)[1]، وكان كل حاكم وسلطان تركي حتىٰ ما قبل مجيء السلطان محمد الفاتح، يتحرّق شوقًا لتحقيق هذا الهدف، وقبل أن يودع هذا العالم الفاني، كان ينقل رغبته تلك إلىٰ أبنائه من بعده[2].

وإذا ما دقّقنا في الخريطة في الفتوحات التي قام بها عثمان فسيظهر أمامنا بكل سهولة هذه الغايات التي كانت تحير العقول:

١- رغبته في جعل البحار حدودًا له.

٢- تقدير أوضاع بيزنطة التي كانت تسير في طريق الانهيار، وإحكام الضغط والتضييق عليها من البحرين؛ بحر مرمرة والبحر الأسود.

=

ووردت أحاديث صحيحة تخبر عن فتح القسطنطينية في آخر الزمان، وهذا لا يمنع من وقوع الفتح تلك العصور كما حدث أيام السلطان محمد الفاتح، ولا يقيد الفضل بما سيكون في آخر الزمان فقط. والله أعلم.

(١) رمز في الميثولوجيا التركية، والأوغوز علىٰ وجه الخصوص، يشير إلىٰ البلاد والأهداف التي يرومون تحقيقها، ولكنها صعبة المنال وبعيدة، وكلما زادت بعدًا وصعوبة، كلما تعاظمت جاذبيتها بالنسبة إليهم.

(٢) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

٣- فصل الأراضي الرومية إلىٰ نصفين، وفتح الأجزاء التي انقطعت روابطها بها[١].

فهذه الاستراتيجية كانت تهدف في طريق فتح القسطنطينية، بل إننا نجد في القصيدة الوحيدة المنسوبة لعثمان بن أرطغرل ما يُعبر عن ذلك الهدف، فيقول:

«ابنِ مدينةً وسوقًا جديدةً بِموادَّ بناءٍ من القلب

اعمل ما تُريد ولكن لا تظلم فلَّاحًا

انظر إلىٰ المدينة القديمة الجديدة إينه گول فهي قائمةٌ دائمًا

اهدم بُورصة التي كسرتُ فيها الكُفَّار وابنِها من جديد

اغدُ ذئبًا واقصد قطيعًا، وكُن أسدًا ولا تتقهقر

افعل شيئًا وكُن جُنديًّا، وحاصر مضيق اللسان

لا تستخف بِمدينة إزنيك، ولا تتدفَّق كنهر صقارية

خُذ إزنيك، ولا تُبالِ، وابنِ سُورًا لِكُلِّ بُرجٍ فيها

أنت عُثمان بن أرطُغرُل من سُلالة الغُزّ وقره خان

أكمل حقَّك، وافتح إسلامبول، واجعلها حديقة ورد»[٢].

---

(١) العثمانيون، عثمان نوري طوبّاش، ص ٣٦-٣٧.

(٢) التَّاريخ السرّي للإمبراطوريَّة العُثمانيَّة ص ١٥ – ١٦.

توسعات وفتوحات جديدة

بعد انقضاء مدة لا بأس بها من الوقت في الفعاليات الإدارية والعمرانية، توجه المحاربون الذين باتوا توّاقين لفتوحات جديدة نحو سلطانهم بالقول:

«الحمد لله والشكر له، فقد أعلىٰ كلمة الحق وراية الدين الحنيف، بأن جعل النصر والظفر من نصيب مولانا الذي غمر البلاد بحكمه العادل، وصان الحقوق والذمم ودحر الأعداء وعلا شأنه بين الأمم. وحارب الفتنة والفساد، وجعل العدل سُنة بين العباد. وكيف ما اتجهنا تحت ظلال سيفه كان النصر حليفنا، والمجد مآلنا. وقد اشتاقت السيوف أن تُستل من الأغماد، وتاقت النفوس أن تعتلي ظهور الجياد. وباتت عيوننا معلقة علىٰ الطرقات التي سنعبرها، والبلدان التي سنفتحها. فلا يجدر بجنود السلطان ومحاربيه الجلوس في دعة وراحة، فيما الأرجاء والممالك تنتظر أن نرفع فيها راية الدين الحق، ونُعلي كلمة الله، لذا نرجو أن تمنحنا الإذن والبركة لنسير مجاهدين فاتحين».

استمع الغازي عثمان إلىٰ محاربيه الذين كانوا يرفُلون في الغنىٰ والعِزّ بعد الفتوحات التي قاموا بها، ولاقت كلماتهم في نفسه عظيم الأثر، وهو يراهم تواقين للجهاد، بدل الركون للراحة والدّعَة[1].

فاستسر عثمان لذلك غاية السرور وأجابهم بقوله: «إن الاستمرار يوجب الكلل والكسل، والمداومة علىٰ الحركة والسفر ربما كانت موجبة لبعض الخلل، وحيث أنكم أزلتم ما كان بالخاطر وأردتم الاستمرار علىٰ الجهاد فذلك القصد والمراد»[2].

فتح إزنيك:

وكان العام ألف وثلاثمئة وثمانية بداية حملة فتوحات جديدة، للغازي عثمان ومحاربيه. فقد اتجهوا بداية نحو قَرَاجَه حِصار التي تعد البوابة الحدودية لكل من إزنيك وإزميت، وسيطروا عليها. وبدءوا بفرض الحصار علىٰ إزنيك من خلال حامية كبيرة العدد وعالية التسليح[3].

---

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق. وانظر: «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠١.

(٢) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠٢.

(٣) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

وكانت قلعة إزنيك في هذه الأثناء قلعة عامرة ومدينة عظيمة، وكانت جوانبها الأربعة محاطة بحشائش الغاب والمستنقَعات، ولا يستطيع أحد الوصول إليها ويعيش بداخلها كثير من الكفار.
وذكر أن هذه القلعة لها أربعة أبواب، يخرج من كل باب كثير من الخيالة الكفار، وقِسْ علىٰ ذلك الخيول المتنوعة التي تبقىٰ بها.
كان غزاة عثمان قلة لكنهم شجعان يؤمنون بأن الرجل لو قاتل ألفًا من الكفار فإنه سينتصر عليهم؛ لأن عقيدتهم طاهرة وقوية. وقد يسر الله جل جلاله لهم هذا الأمر ببركة اعتقادهم، فأغاروا علىٰ قلعة إزنيك، وغنموا منها، وخرج الكفار عدَّة مرات وحاربوا الغُزاة، ومنح الله جلَّ وعلا الغزاة فرصة ثانية، وهزموهم خارج القلعة، لكنهم لم يستطيعوا الاقتراب من القلعة، ولم يستولوا عليها بالحرب، وقاموا ببناء قلعة في جبل قريب من «يني شهر» وجعلوا فيها الرجال، وحاصروا إزنيك، ودب الخوف والضعف لدىٰ الكفار، وبقوا داخل القلعة والغزاة في حركة وعمل خارجها، وبقوا علىٰ هذا الوضع فترة طويلة، وفي النهاية أرسل الكفار رسولًا إلىٰ حاكم (القسطنطينية) وقالوا له: «لقد جاء الترك إلينا ومنعونا من الخروج، فإن كانت لديكم أيّة حيلة لنا فأنقذونا بها، وإلا فإن الترك سيأسروننا وبناتَنا وأبناءنا أو سنهلك من الجوع فإن كنتم تستطيعون معاونتنا فأعينونا».

ولما عرف حاكم القسطنطينية هذا الأمر قام بجمع كثير من السفن، وأمدَّها بجيش كبير وأرسلها إلىٰ هناك؛ ليطردوا الغُزاة، ويفكوا الحصار.

ووصلت السفن وخرجت إلىٰ وادي «يلاق» ومن هناك ذهبوا إلىٰ إزنيك، وهجموا علىٰ الغزاة بغتة، وكان جاسوس الغزاة قد علم بموعد خروج الكفار إلىٰ البر فأسرع إلىٰ الغزاة يخبرهم، فأقبل الغزاة مسرعين ونصبوا كمينًا في الساحل الذي سيخرج إليه الكفار وانتظروهم، وفي هذا الجانب رست سفن الكفار في «يلاق» وبدءوا في الخروج.

وفي أثناء إخراجهم الخيول والمعدات خرج الغزاة العثمانيون من كمائنهم وحفرهم، ودعوا وكبروا، وهجموا عليهم بالخيول، وأهلكوا منهم خلقًا الله أعلم بعِدَّتهم، وغرق معظم الذي سقط في البحر، وبعضهم الآخر هرب بما فيه قائد الجيش.

استطاع عدد قليل ممن هربوا أن يصلوا إلىٰ القسطنطينية وأخبروا الحاكم بما نزل بهم من البلاء، فأصابه الفزع والجزع، ولم يستطع أن يفعل شيئًا، وشعر أهل إزنيك باليأس، وفي النهاية اتفقوا علىٰ ضرورة تسليم القلعة إلىٰ الغزاة وإعلان الطاعة، وأخذ الغزاة القلعة واستولوا علىٰ ما فيها، فأغناهم الله بها[1].

(١) تواريخ آل عثمان ص١٠٩-١١١.

إسلام كوسه ميخال

في العام ١٣١٣م حدث أمر ضاعف من فرحة الفاتحين وقوتهم. فقد جاء كوسه ميخال حاكم «خَرْمَان كايا»، وصديق الغازي عثمان القديم، وأعلن دخوله الإسلام، وانضمامه إلىٰ القوات المحاربة تحت لواء الغازي[١].

وتشير بعض الروايات إلىٰ أن عثمان بن أرطغرل هو الذي عرض عليه الإسلام وأراد بذلك أن يستعمله علىٰ فتوحاته الجديدة لخبرته بمسالك هذه البلاد ومعرفته بطرقها[٢].

ومنذ ذلك الوقت رافق الغازي ميخال عثمان بن أرطغرل في كافة حملاته وفتوحاته، وأظهر مع جنوده شجاعة منقطعة النظير. ولا يعرف علىٰ وجه الدقة تاريخ وفاة هذا المحارب الذي شهد فتح مدينة بورصه، حيث دفن في منطقة ميخال غازي بالقرب من قرية الأرمن.

وتشير المصادر العثمانية إلىٰ أن أبناءه وأحفاده كانوا محاربين أشداء، شاركوا بفاعلية كبيرة في تاريخ الدولة العثمانية حتىٰ نهايات القرن السادس عشر.

---

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

(٢)«بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠٢.

انطلق الغازي عثمان برفقة الغازي ميخال ومحاربيهم في عام ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر لفتح قلاع كل من ليفكه (العثمانية) ميكجة، آك حِصار، غيفة وليبليبجي. وفي خلال هذه الفتوحات تعرضت المناطق الجنوبية من الأراضي العثمانية لتهديدات عشيرة الجافدارلي واعتداءاتها.

وهكذا أرسل الغازي عثمان ابنه أورخان وسالتوك آلب وهو أحد رفاقه في السلاح، مع الغازي ميخال علىٰ رأس القوات التي اتجهت لمحاربة هذه العشيرة. وقد تمكن أورخان برفقة هذين المحاربَين المحنكَين من إلحاق هزيمة كبيرة بقوات عشيرة الجافدارلي- التي قامت بالإغارة علىٰ قَرَاجَه حِصار ونهبها - بالقرب من أويناش حِصار. وحين عودته من الحملة، عرض جافدار أوغلو مع الكثير من محاربي العشيرة الذين أسرهم أمام والده الغازي عثمان والذي قرر حينها إطلاق سراحهم بعد أخذ المواثيق والوعود منهم بعدم تكرار مثل هذه الاعتداءات، وقد سوّغ ذلك بقوله: «هؤلاء المعتدون مسلمون، لذا فقتلهم غير جائز». وهكذا تم إطلاق سراح الأسرىٰ[1].

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

حصار مدينة بورصه

لما علم حاكم بورصه بانتصار المسلمين وهزيمة بني جنسه استشاط غضبًا، واتفق مع بعض الحكام علىٰ أن يسيروا إلىٰ الغزاة العثمانيين، ويشتتوا شملهم، وجمع جيشًا كبيرًا وساروا من بورصه إلىٰ عثمان غازي، فتضرع عثمان إلىٰ ربه وواجه الغزاة الكفار، واشتعلت حرب عظيمة؛ انتهت بهزيمة الكفار... وسقط عدد كبير منهم في المعركة، واستشهد من الغزاة المسلمين «أي طوغدىٰ» بن «كوندوز آلب»، وهرب حاكم «أورنوس» وحاكم بورصه، وفرًّا بحياتهما، وقتل حاكم «كستل» في المعركة.

وتحصن حاكم بورصه بقلعته، فتركه الغزاة بها واستولوا علىٰ «أولوباد» وعقد حاكم أوباد صُلحًا مع الغزاة وأعلن الطاعة لهم، وأبقوه في الحكم[1].

واشترط حاكم القلعة البيزنطي علىٰ عثمان بن أرطغرل حين استسلم له، ألا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلىٰ داخل القلعة! ومن وفاء العثمانيين لذلك العهد أنهم كان يدخلون قلعة أولوباد -عدة قرون- بواسطة القوارب علىٰ الرغم من وجود

(١) تواريخ آل عثمان (ص١١٣-١١٤).

الجسر، كما يروي المؤرخ إسماعيل حامي دنشمند في كتابه: «موسوعة التاريخ العثماني»[1].

رأىٰ عثمان غازي أن الاستيلاء علىٰ قلعة بورصه بالحرب يحتم عليه تشديد الحصار عليها، فقام في عام ١٣١٥م بتشديد الحصار علىٰ مدينة بورصه التي كان قد ضرب عليها الحصار منذ وقت طويل. ولكن بسبب أسوارها المنيعة، فقد كان من الصعب أن تسقط وتستسلم بسهولة، كما أن الخسائر الكبيرة والتكلفة التي كانت تتطلبها مواصلة الحصار، دفعته إلىٰ رفع الحصار عنها، ولكنه أمر قواته ببناء قلعتين صغيرتين بالقرب من المدينة. وقد استغرق بناؤهما ما يقارب العام، فعين ابن أخيه آك تيمور علىٰ رأس حامية القلعة التي إلىٰ جوار كابليجا، فيما عين بلابانجيك علىٰ رأس حامية القلعة التي إلىٰ جوار جبال أولوداغ. وقد تمكن هذان المحاربان القويان من فرض حصار مستحكم علىٰ المنطقة المحيطة ببورصه، ولم يسمحوا لأحد من أفرادها بالتحرك خارج أسوار قلعتها[2].

---

(١) أبو غنيمة، زياد (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). جوانب مُضيئة في تاريخ العُثمانيين الأتراك (الطبعة الأولىٰ). عمَّان - الأُردُن: دار الفُرقان للنشر والتوزيع. ص٣٢، ٣٣. وانظر: «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ٩٩-١٠٠.

(٢) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠١، شيمشيرغيل، مرجع سابق.

وحان بينه الأجل

مع حلول عام ألف وثلاثمئة وسبعة عشر، بات عثمان يعاني من أعراض مرض النقرس وهو مرضٌ مزمنٌ يُصيب المفاصل، فاشتد عليه الألم، ومنعه من الخروج علىٰ رأس قواته، لذا فقد قسمها إلىٰ عدة ألوية ليرسلها إلىٰ مختلف الجبهات لمواصلة الفتوحات، وكان الغازي أورخان هو القائد العسكري الذي تتحرك تحت إمرته جميع هذه القوات، فجمع عثمان الجيش في «يني شهر» وخاطبهم قائلًا: «أيها الشجعان، إنني أترك فتح بورصه أمانة في أعناقكم وفي عنق ابني أورخان».

وبهذه الكلمات غمرت الجيش العثماني نشوة جديدة، وتحمس أورخان فأمر جيشه بالتجمع في منطقة «بينار باشِي» وتحرك معه عثمان إلىٰ هذه المنطقة علىٰ الرغم من كبر سنه ومرضه الشديد واعتلال قدمه بالنقرس إلا أنه أحس أن الأجل اقترب وما يزال هدفه لم يصبه، وهناك أشار إلىٰ إحدىٰ قباب الأديرة الموجودة في بورصه وقال لابنه: «وصيتي هي أن تدفنني تحت هذه القبة يا بني»[1].

---

(١) السلاطين الأوائل عصر تأسيس الدولة العثمانية، إعداد: حسين جُوكْتشة، صالح كولون، لطيف جَنْتش، ترجمة: أ.د. سمير عباس زهران، ص ٢٥، دار النيل، القاهرة ٢٠١٦م. العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ص٣٧.

عاد الغازي عثمان إلىٰ سوغوت موطنهم الأصلي في ذلك الوقت، يعيش فترة عصيبة من المعاناة مع مرض النقرس الذي كان مرضًا خَطِرًا آنذاك، ولم يكن له علاجٌ معروفٌ في زمانهم، والمريض بالنقرس قد يتعرَّض لنوباتٍ حادَّةٍ جدًّا من التهاب المفاصل وتورُّمها، وله -كما هو معروفٌ طبِّيًّا- آثارٌ علىٰ كافَّة أعضاء الجسم. وقد يزداد الأمر سوءًا إذا أصاب النقرس الكُلَىٰ أو القلب، وقد يكون قاتلًا في هذه الأحيان، فليس عجيبًا أن نجد في المصادر أن عثمان مات بسبب داء النقرس، فالنقرس -في المعلومات الطبِّيَّة الصحيحة- مرتبطٌ إلىٰ درجةٍ كبيرةٍ بحدوث السكتات الدماغيَّة (**Stroke**)، وبحدوث الارتفاع الشديد في ضغط الدم (**Hypertension**)، وكذلك بحدوث النوبات القلبيَّة (**Heart attackes**)، وكلها مضاعفات قاتلة، وتُحْدِث الموت المفاجئ[1].

وقد تحدث عاشق باشا زاده في تاريخه عن الفترة الأخيرة من حياة عثمان، فقال: «كان ثَمَّةَ عَطَب في قدم عثمان، وكان يتألَّم منها». وكان الكاتب نفسه قد استعمل التعبير نفسه عند حديثه عن وفاة السلطان محمد الفاتح، فقال: «سبب وفاته عِلَّةٌ في قدمه». ومن

(1) Konshin Victor Beating, Gout. - New York, USA : Ayerware publishing, 2009, pp. 56-58.

المعروف أن النقرس كان مرضًا وراثيًّا في الأسرة العثمانية، وعانىٰ منه الكثير من السلاطين منهم محمد الفاتح[1].

أورخان يستكمل الحصار ويفتح بورصه:

قبل مرور الكثير من الوقت ظهر الأمير أورخان -الذي كان يتحلىٰ بحنكة ومقدرة علىٰ أداء المهمات الصعبة بالرغم من صغر سنه- أمام أسوار كاراتكين حِصار. ولكن حاكم المدينة الذي اغتر بقوته، ورفض عروض الأمير بتسليم المدينة صلحًا، أثار غضب الغازي أورخان عليه. ومنذ المعركة الأولىٰ غدت القلعة حصنًا للمجاهدين، وقبلةً للدين تمد كل ذي حاجة بالعون والمساعدة. وقد أصيب الحاكم بجراح ثخينة أودت به للموت، فيما أرسل الغازي أورخان ابنته مع جميع حاشيته وممتلكاته النفيسة إلىٰ والده. أما الأمير الشاب فبعد أن سلم إدارة القلعة لسامسا شاويش، انطلق نحو فتوحات جديدة.

وكان الجيش مقسم إلىٰ لواءات تحت قيادة الغزاة من جند عثمان، وهم:

١- **آكجا خوجا**: كان هذا القائد الجَسور الذي يقيم مع جيشه في موقع قريب من بيش كوبرو في منطقة سابنجا، يقضي جُلّ وقته في

(١) التاريخ السرّي للإمبراطورية العثمانية، ص ١٧.

الإغارة علىٰ الأعداء من حوله، وأسر معظم قادتهم وجندهم. وبفضل بطولاته هو ومحاربيه، كان الجهاد يتسارع خطوة تلو الأخرىٰ في أرجاء المنطقة برمتها، حتىٰ وصلوا إلىٰ منطقة آكوفا[1] وحققوا انتصارات كثيرة. ومنطقة كوجايلي التي تحمل اسمه حتىٰ الآن، كانت قد دخلت الإسلام بفضل بطولاته والجهود العظيمة التي أبداها هذا المحارب الجسور.

٢- **الغازي عبد الرحمن**: قام البيزنطيون الذين أرادوا وضع حد لهجمات سامسا شاويش التي يشنها علىٰ مدينة إزنيك وما يجاورها، بإرسال جيش ضخم يرافقه أسطول حربي نحو يالوفا[2] ولكن قوات الغازي عبد الرحمن وصلت إلىٰ الموقع علىٰ وجه السرعة، وقامت بشن هجوم مفاجئ عليهم. وقد غرق معظم الجنود البيزنطيين بعد أن ألقَوا بأنفسهم في البحر للنجاة والهرب. ولم يتمكن من الوصول إلىٰ إسطنبول سوىٰ أعداد قليلة منهم، ممن استطاعوا بلوغ سفن الأسطول بشق الأنفس.

---

(١) مدينة تقع في الجبل الأسود أو مونتينيغرو، وهي دولة تقع في جنوب أوروبا وكانت إحدىٰ الدولتين المشكلتين لاتحاد صربيا والجبل الأسود.

(٢) محافظة يالوفا هي إحدىٰ محافظات تركيا عاصمتها مدينة يالوفا تقع في شمال غرب تركيا.

٣- كونور آلب: بعد شن عدة هجمات علىٰ منطقة آكياز تمكن من السيطرة علىٰ توز بازار[١] وفي عام ألف ومائتين وثلاثة وعشرين تمكن من إيقاع العدو في كمين محكم وألحق الهزيمة بهم في أوزونجابال، وعاد مجددًا إلىٰ توز بازار. وظل يواصل فتوحاته ويحقق الانتصار تلو الآخر، وتمكن من فتح قلاع كل من كيكليك[٢] وكويوجاك[٣] وكريستجي والتي غدت حصونًا منيعة للمجاهدين.

٤- كارا علي: كان كارا علي بن أيكوت آلب من المحاربين الشباب، وقد شارك في معظم الفتوحات التي قادها الغازي عثمان، وحقق بشجاعته وجرأته انتصارات باهرة، واكتسب سمعة عظيمة. وحين تمكن من السيطرة علىٰ ميناء جزيرة كالو وفتحها سِلمًا، زوجه الغازي عثمان من ابنة قس الكنيسة الجميلة. وقد استطاع هذا المحارب الشاب الذي تسلّم قيادة أحد ألوية جيوش المجاهدين، فتح كلٍّ مِن نيفجة حِصار وغيفة[٤] وقره غوز، حيث استقر في تلك المنطقة، وجعلها مركزًا يشن منها هجمات شديدة

(١) بلدة تابعة لمحافظة بورصة.
(٢) تتبع لمحافظة إزمير.
(٣) تتبع لمحافظة آيدن.
(٤) تتبع لمحافظة صقاريا التركية.

علىٰ الأعداء.

٥- **سامسا شاويش**: بعد استقراره في قلعة كاراتكين، ظل يواصل غارات قوية علىٰ إزنيك، وذلك من أجل إضعافها وتسهيل مهمة فتحها.

٦- **الغازي ميخال وتورغوت آلب**: كان هذان المحاربان المقتدران يترأسان القوات التي تشن هجمات قوية علىٰ مدينة بورصه، ويقضيان جل وقتهما في ساحات الوغىٰ، والجهاد في سبيل الله.

ومن جهة أخرىٰ كان الغازي أورخان يواصل القتال، حيث تمكن في عام ألف وثلاثمئة وواحد وعشرين من السيطرة علىٰ مودانيا[١] وبذلك عزل بورصه عن العالم الخارجي، وأحكم عليها قبضة الحصار، فكانت مودانيا الجهة الوحيدة الباقية التي توصلهم بالقسطنطينية ويتلقون حاجياتهم عن طريقها من الإمدادات، وكان علىٰ المدافعين عنها أن يقدموا الجزية للعثمانيين لمدة خمس سنوات لكي يضمنوا احتفاظهم بها[٢].

---

(١) مدينة تابعة لمحافظة بورصة.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية، منذ نشأتها حتىٰ نهاية عصرها الذهبي، د. أحمد فؤاد متولي ص٣٧، إيرتاك للنشر والتوزيع ٢٠٠٥م.

ومن ثم توجه نحو أدرنوس، وعرض علىٰ الحاكم تسليم مفاتيح القلعة دون قتال، مقابل بقائه في منصبه، ومواصلة إدارة شئون المدينة دون مشاكل أو حروب. ولكن الحاكم الذي انسحب من القلعة، مختبئًا في الجبال القريبة، ظل رابضًا هناك ينتظر انسحاب أورخان، وكان يخطط للعودة لحكم القلعة كما في السابق. ولكن الأمير الشاب الذي كان مقبلًا علىٰ الجهاد بكليته، راغبًا فيه بكل حماس وإيمان، تسلق الجبال حيث القلعة التي احتمىٰ فيها الحاكم، والذي انتابه ذعر شديد، وحاول الهرب مجددًا، ولكنه سقط من علىٰ جُرُف عالٍ ومات علىٰ الفور، وأصبح عبرة لكل من شهد نهايته الفاجعة. وقد استسلم رجاله وتوسّلوا للغازي أورخان للعفو عنهم. وهكذا سيطر الأمير الشاب علىٰ مدينة أدرنوس التي أصبح اسمها منذ ذلك التاريخ أورخان لي[1].

وأمن أورخان أهلها وقررهم في أماكنهم ورتب عليهم الجزية، وأما القلعة فهدمها وجعلها دكًا بعدما غنم منها المسلمون غنائم كثيرة، ومنها رجع مسرعًا إلىٰ قلعة بورصه ونزل بساحتها وأحاط بقلعتها ووجدها في حالٍ ضنك واضراب ومخمصة وضيق معيشة بسبب الحصار الذي فرضه عليها السلطان عثمان والقلعتين اللتين

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠٨، ١٠٩. شيمشيرغيل، مرجع سابق.

بناهما، فأرسل لهما كوسه ميخال يخاطبهم في تسليم البلاد بالأمن والأمان وإلا فالهجوم والقتال، وذلك لصداقة كوسه القديمة مع صاحب بورصه، فتكلم معه وأظهر له النصح، فصالحه علىٰ ثلاثين ألف دينار من الذهب جراء أن يخرج وأهله وماله إلىٰ ساحل البحر فيذهب إلىٰ القسطنطينية، ووافق أورخان علىٰ ذلك وأتحفه ببعض الهدايا، وخرج إلىٰ ساحل «كمليك»[1] ومنه قطع إلىٰ القسطنطينية[2].

وبهذا فُتحت بورصه بعد طول انتظار، في ٦ أبريل سنة ١٣٢٦م = ٢جمادىٰ الأولىٰ ٧٢٦هـ[3]، وفرح المسلمون بهذا الفتح العظيم، واجتهد أورخان في تعميرها وترتيب العساكر وحفظ الحصون وما يحتجونه، وبلغه ضعف حال والده وترادف الأمراض عليه فرتب في القلعة من ينوب عنه ويقوم مقامه وأسرع أورخان عائدًا إلىٰ سوغوت لينقل الخبر إلىٰ والده[4].

---

(١) وتنطق: جَمْلِك، وهو ثغر علىٰ بحر مرمرة علىٰ مسافة عشرين كيلومتر شمال شرق مدينة «بورصه».

(٢) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١٠٩، ١١٠.

(٣) تاريخ الدولة العثمانية، د. أحمد فؤاد متولي ص٣٧. «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١١٠.

(٤) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١١٠.

الوداع الأخير

كان عثمان يعاني سكرات الموت في تلك الفترة، فجاءه أورخان فَوَجَدَهُ في حالة النزع ولم يلبث أن أسلم الرُّوح إلىٰ بارئ النسمات ومبدع الكائنات بعد أن أوصىٰ للملك بعده لأورخان ثاني أولاده لاتصافه بعلو الهمة والشجاعة والإقدام ولم يوص بها لبكر أولاده علاء الدين لميله إلىٰ الوَرَع والعُزْلَة، وَتُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦ هجرية ١٣٢٦ م عن ٧٠ سنة [هجريَة، وبالميلادي ٦٨سنة] قضىٰ معظمها فِي تأسيس هذه الدولة الفخيمة الملحوظة بعَين العِناية الربانية وتوسيع نطاقها، ودفن في مدينة بورصه وبلغت مُدَّة حكمه ٢٧ سنة تقريبًا.

ومن حسن حَظّ هَذِه الدولة أن عَلَاء الدّين لم يُعَارض فِي هَذِه الْوَصِيَّة الَّتِي حرمته من ملك عَظِيم بل قبلهَا مُقدِّمًا الصَّالح الْعَام علىٰ الصَّالح الْخَاص، وَاكْتفىٰ بوزارة المملكة وَهِي الْوَظِيفَة الْمُسَمَّاة الْآن بالصدارة الْعُظْمَىٰ الَّتِي قَلّدهُ إياها أخوه أورخان، فاختص عَلَاء الدّين بتدبير الأمور الداخلية وتفرغ أورخان للفتوحات ونشر الرَّايَة العثمانية علىٰ كل مَا وصلت إليه يَدَاهُ من الْبِلَاد الْمُجَاورَة.

ومن أهم أعمال علاء الدين أن أمر بضَرْب العملة من الفضة والذَّهَب

ووضع نظامًا للجيوش المظفرة وجعلها دائمية؛ إذ كانت قبل ذلك لا تُجمَع إلا وقت الحرب وتُصرف بعده، فخشِي من تحزب كل فريق من الجند إلىٰ القبيلة التابع إليها وانفصام عُرىٰ الوحدة العثمانية التي كان كل سعيهم في إيجادها، فأشار عليه أحد فحول ذلك الوقت واسمه «قره خليل» وهو الذي صار فيما بعد وزيرًا أولًا باسم خير الدين باشا بأخذ الشبّان من أسرىٰ الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أبًا إلا السلطان ولا حِرْفَة إلا الجهاد في سبيل الله ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشىٰ من تحزبهم معهم، وأعجب السلطان أورخان هذا الرأي وأمر بإنفاذه ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل سار بهم إلىٰ الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر علىٰ الأعداء وقال فَلْيَكُن اسمهم «يني تشارىٰ» ويرسم بالتركية هكذا «يكيجارىٰ» أي الجيش الجديد ثمَّ حُرِّف في العربية فصار انكشاري وانكشارية.

ثمَّ ارتقىٰ هذا الجيش في النظام وزاد عدده حتىٰ صار لا يعوّل إلا عليه في الحروب وكان هو من أكبر وأهم عوامل امتداد سلطة الدولة العثمانية[1].

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص: ١٢٢- ١٢٣).

ومن المؤكد أن وفاة عثمان كانت بعد وفاة حَميَّه الشيخ «أده بالي» بثلاثة أو أربعة أشهر، وبعد وفاة زوجته مال خاتون بشهرين. ومن المعروف أنه دفنهما بيديه في بيله جك. وعندما وافته المنيَّة دُفن في سُوغوت بدايةً، ثُمَّ أمر السلطان أورخان بنقل جُثمانه إلىٰ بورصه، التي اتخذها عاصمةً له، ودفنه فيها[1]، وقبره كائن إلىٰ اليوم في حي «طوبخانه»[2].

دولة عثمان

مات عثمان بعد أن حقق توسعات مهمة لإمارته، وتمدد في الأراضي البيزنطية بكثرة، كما ذكرنا في الصفحات السابقة قد يعطي هذا التوسع انطباعًا بأن عثمان قد ترك وراءه إمارة كبيرة ذات حدود طويلة مع عدة إمارات ودول؛ ولكن الواقع أن إمارة عثمان لم تتعدَّ ١٦,٠٠٠كم٢! وهي مساحة صغيرة للغاية إذا ما قورنت بدول ذلك الزمان؛ بل إذا ما قورنت بالإمارات التركية المجاورة لها، وهذا جدير بالتأمل وتتبع السياسة التوسعية التدريجية التي انتهجها والده أرطغرل في توسع إقطاعيته من ١٠٠٠كم٢ إلىٰ ٤٨٠٠ كم٢ علىٰ مدار نصف قرن، إلا أن عثمان كان أسرع من والده، وتحركاته كانت أقوىٰ

(١) تاريخ الدولة العثمانية. الأميرلاي إسماعيل سرهنك، دار الفكر الحديث، ١٩٨٨م، ص ١٤.
(٢) وذكره ابن بطوطة في رحلته (٢/ ١٩٨).

وأعمق، وهذا أمر طبيعي بعد أن صار من سكان غرب الأناضول، وخبِر نقاط الضعف والقوة في البيزنطيين.

وتعتبر دولة عثمان آنذاك من الناحية الإدارية الحالية تشمل المناطق الآتية: بلجيك، مركز مدينة «أسكي شهر»، «كيفا» التابعة لمحافظة «صقاريا»، «آق يازي»، «خنق»، «كوتاهيا – دومانيج»، واقضية «مودانيا» و «ينى شهر» التابعتان لمحافظة «بورصه»[1].

(١) الدولة العثمانية المجهولة، ص٦٠.

وصية ودستور

تنصُّ المصادر العثمانية علىٰ أن عثمان أوصىٰ ولده أورخان بوصية جامعة تعد دستورًا للحكم من بعده، وقد تعددت فيها الروايات، لكنها كلها تحمل المعنىٰ نفسه.

فكما يوردها الصدر الأعظم كامل باشا، في كتابه المطبوع باللغة التركية القديمة «التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية»، تطالعنا هذه العبارات: «اعلم يا بني، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها...».

وينقل المؤرخ التركي المعاصر قادر مصر أوغلو في كتابه (مأساة بني عثمان)، عبارات أخرىٰ من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: «يا بني، إنني أنتقل إلىٰ جوار ربي، وأنا فخور بأنك ستكون عادلًا في الرعية، مجاهدًا في سبيل الله، لتنشر دين الإسلام».

«يا بني، أوصيك بعلماء الأمة، أَدِمْ رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل علىٰ مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بخير».

«يا بني: إياك أن تفعل أمرًا لا يرضي الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك علىٰ الخير».

«واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا».

وينقل المؤرخ التركي المعاصر عبد القادر زاده أوغلو في كتابه (التاريخ العثماني المصور)، عبارات أخرىٰ من وصية عثمان تقول: «وصيتي الأولىٰ لأبنائي، ولجميع الأعزاء عليَّ، أن لا يتركوا الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دين الإسلام الجليل، ورفع راية محمد ﷺ عاليًا، وليكن كل وقتكم لخدمة الإسلام، ونشر كلمة التوحيد في ربوع العالمين، وإنني أقول لكم: إنني أدعو الله عز وجل أن يحرم من شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة كل واحد فيكم يبتعد عن طريق الإسلام، ويظلم الناس، ويترك الجهاد»[1].

وفي كتاب بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجه:

«يا بني، عليك بتقوىٰ الله العظيم، واتباع الشريعة المحمدية، وإجراء الرفق والعدل بالرعية، ومجالسة أهل العلم، والانقياد لأوامر الله، وكُن مثلي: لا تجتهد في الدنيا وحُبها، ليكون جهادك واجتهادك خالصًا لوجه الله الكريم، ومخلصًا لإعلاء كلمة الدين

(١) زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، دار الفرقان للنشر والتوزيع – عمان – الأردن، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، (ص٢١ – ٢٣).

والعمل بسنة سيد المرسلين»[1].

وفي كتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة»:

يا بني! إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلًا.

يا بني! أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم علىٰ الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني! إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.

يا بني! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت أهل له»[2].

وبتحليل تلك الوصية نجد أن عثمان ركز علىٰ سبعة معانٍ مهمة، هي:

١- الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة.

٢- احترام علماء الدين واستشارتهم في الملمات.

---

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/ ١١١.

(٢) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي - القاهرة، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م، (ص١٢).

٣- نشر الدين والدعوة إلىٰ الله.
٤- الحث علىٰ الجهاد في سبيل الله.
٥- الحكم بالعدل والتبرء من الظالمين، وإن كانوا من نسله.
٦- حسن سياسة الناس والتوسعة عليهم بالعطاء.
٧- الإخلاص لله في الحكم دون شهوة التسلط والاغترار بالملك.

أهم الصفات القيادية المميزة في شخصية عثمان

عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري ورجل سياسي، ومن أهم هذه الصفات:

١- **الإخلاص والتدين**: كان واضحًا جدًّا من سيرة عثمان أنه لم يسعَ لنيل منصب ولا تولي قيادة بل منذ اللحظة الأولىٰ عمل تحت إمارة أخرىٰ لنصرة دين الله، ولم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كانت فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق في موسوعته «التاريخ العام الكبير» قائلًا: «كان عثمان متدينًا للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكًا لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حبًّا في السلطة

وإنما حبًّا في نشر الإسلام»[1].

٢- **حب الجهاد**: وهذه صفة واضحة جدًّا في مسير حياة عثمان، لذلك يقول قادر مصر أوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانًا عميقًا بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعًا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف»[2].

٣- **الشجاعة والإقدام**: وهي صفة رئيسة في حياة عثمان الذي رضي أن يعيش غازيًا يقتحم أراضي البيزنطيين وعندما تنادَىٰ أمراء النصارىٰ في بورصه ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون لتشكيل حلف صليبي لمحاربته، رأيناه كيف تقدم بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين.

٤- **الحكمة**: رغم هذه الشجاعة والقوة إلا أن عثمان لم يكن متهورًا، بل تجلت حكمته في كثير من المواقف، أهمها أنه لم يُرِد التوسع علىٰ حساب العشائر التركمانية المجاورة له من المسلمين، وجعل كل فتوحاته نحو بيزنطة، لذلك يقول المؤرخ

(١) جوانب مُضيئة في تاريخ العُثمانيين الأتراك (ص ٣٣).
(٢)جوانب مُضيئة في تاريخ العُثمانيين الأتراك، ص ٣٣.

الإنجليزي إدوارد جِيبُون: «أما السلطنة التي تمكن عثمان من وضع أسسها، فقد كانت أكثر بقاءً وبالتالي كان تأثيرها أكثر رسوخًا وشمولية بما لا يقارن. ذلك أنه كان يتقدم بهدوء وسكينة، علىٰ عكس أسلافه الذين كانوا يتقدمون علىٰ أصوات الطبول ونفخ الأبواق الحربية»[1].

٥- **الإدارة والتخطيط**: لم يكن عثمان عشوائيًّا بل كان يعمل وفق خطة وإدارة وإستراتيجية بعيدة المدىٰ يعمل علىٰ تخطيط مستمر لها، وهي كما بينا من قبل: الغزو والتوسع في الأراضي البيزنطية تمهيدًا لفتح القسطنطينية، ولقد أسس دولته الناشئة بخطوات متتابعة، تمهد كل منها للأخرىٰ، ولمح جِيبُون ذلك فقال: «وبالرغم من أن أراضيه كانت صغيرة وأتباعه قليلين، إلا أن دولته كانت تكبر سنة بعد سنة بشكل مستمر. وهذا النمو المستمر إنما يدل علىٰ شدة ذكائه، الذي أسس به الدولة»[2].

٦- **الصبر**: وظهرت هذه الصفة في شخصيته في إصراره علىٰ فتح الحصون والبلدان، خصوصًا في حصاره لمدينة بورصه الشديد الذي دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بورصه من الأمور السهلة بل

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.
(٢) العثمانيون، تأليف: عثمان نوري طوبّاش، ص٣٧.

كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته، لذلك لمح المؤرخ الأمريكي «وِل ديورانت» هذه الصفة وامتدحها فيه فقال: «لم يكن عثمان قائدًا عظيمًا[1]، ولكنه كان مثابرًا صبورًا»[2].

٧- **الجاذبية القيادية**: فقد رأيناه شخصًا جاذبًا لطوائف كثيرة من الناس شاركت معه في بناء إمارة أقوىٰ من الإمارات المحيطة علىٰ صغر حجمها، من الفرسان الغزاة للحرفيين والصناع للصوفيين والشيوخ حتىٰ إنه كان جاذبًا للنصارىٰ أنفسهم.

٨- **العدل**: كان عثمان عادلًا يحذر من الظلم ويعظمه، وبلغ عدل عثمان أنه حكَم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحي وأنا علىٰ غير دينك، فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[النساء: ٥٨]، وكان هذا العدل الكريم سببًا في اهتداء الرجل وقومه إلىٰ الإسلام[3].

---

(١) أي أنه قائد اعتيادي، لا كأصحاب الإمبراطوريات والدول، وهذا حق من الناحية المادية، لكن عظمة عثمان تكمن في ديانته وقيادته الحكيمة.

(٢) وِل ديورانت، قصة الحضارة، (٢٦/ ٥٥)، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ=١٩٨٨ م.

(٣) انظر: جوانب مُضيئة في تاريخ العُثمانيين الأتراك، ص ٧٥-٧٦.

٩- الوفاء: كان عثمان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، ألا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلىٰ داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده، فكانوا يدخلون قلعة أولوباد -عدة قرون- بواسطة القوارب والسفن من ناحية أخرىٰ[1]، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٤].

١٠- التسامح مع النصارىٰ: اشتهر عثمان بتعامُله الليِّن مع الأهالي المسيحيين للبلدات والقلاع التي فتحها، بما فيهم جنود الحاميات، حيث كان يأمر بإعتاقهم لو ثبت إخلاصهم، كما تولَّىٰ رعاية الأرامل والأيتام الروم ومنحهم العطايا وغنائم غزواته كما كان يفعل مع أبناء قبيلته، وأظهر رفقًا بكبار السن خصوصًا، مما كان دافعًا لكثير منهم علىٰ اعتناق الإسلام[2].

١١- الكرم: كان واسع العطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن عاداته أنه كان يهب أصحاب الحاجة كل ما يغنمه في الغزوات، وكان يصنع الموائد في

---

(١) «بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان» ١/٩٩-١٠٠، «جوانب مُضيئة في تاريخ العُثمانيين الأتراك»، ص٣٣.

(٢) بيومي، زكريا سليمان (١٤١١هـ - ١٩٩١م). قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين: التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي (الطبعة الأولىٰ). جدَّة - السُعودية: عالم المعرفة. (ص ٥١ - ٥٣).

بيته كل يوم فيطعم كل من يكون في بيته وقت العصر، دون تمييز بين غني وفقير، وبين مسلم أو مسيحي[1]. وكانت له عادة قبليَّة تُسمَّىٰ «فتح بيت السيِّد» أو «نهب بيت السيِّد»، كان عثمان يفتح بمُوجبها بيته في السادس مايو من كل سنة، وهو اليوم الذي التقىٰ فيه الخضر بالنبي إلياس وفق بعض الروايات أو الأساطير، واعتُبر يومًا خيرًا تَفيض به الخيرات والبركات، وبناءً عليه كان سيِّد القبيلة وزوجته يخرجان من البيت من دون أن يأخذا شيئًا معهما؛ ولو كان دبُّوسًا، فيهجم أفراد القبيلة علىٰ البيت بعد خُروجهما، ويأخذون ما تيسَّر من متاع[2].

١٢- الزهد: المتأمل في سيرة عثمان يرىٰ أنه كان زاهدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ زاهدًا في الملك، زاهدًا في ملبسه، زاهدًا في ماله ومتاعه، ومما يدُلّ علىٰ زُهد عثمان وترفُّعه عن الماديّات عدم العُثور علىٰ أيِّ ذهب أو فضة بين ممتلكاته بعد وفاته. وبحسب المعلومات الواردة في المصادر التاريخية، فإن ما وُجد في تركته هو: ثوب جديد نسبيًّا يُدعىٰ «صرطاق تكلسي»، وخرج يُعلَّق علىٰ جنب الحصان يُدعىٰ

(١) شهصوار أوغلي، بديع (١٩٦٨). "آخر أيام السلاطين العثمانيين". مجلة التاريخ التركي بالوثائق (عدد ٤ كانون الناني (يناير) ١٩٦٨): ٦٤.

(٢) التاريخ السري للإمبراطوريَّة العُثمانيَّة ص ١٥.

«يانجغي»، ووعاء ملح، وحمَّالة ملعقة خشبيَّة، وزوج من أحذية طويلة الساق، وعدة خيول جيدة، وثلاثة أغنام يعلفها من أجل إكرام ضيوفه، ولفَّة من قماش الدنيزلي، ودرع للحصان، ورايات حمراء من منسوجات آق شهر، وسيف، وكنانة، ورمح، وما شابه ذلك[1].

هذه بعض صفات عثمان الأول والتي كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالىٰ والاستعداد لليوم الآخر، لقد كانت شخصيته متزنة وخلابة، لذلك لم تطغَ قوته علىٰ عدالته، ولا سلطانه علىٰ رحمته، ولا غناه علىٰ تواضعه، وأصبح مستحقًّا لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالىٰ بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالىٰ علىٰ عبده عثمان، فجعل له مُكنة وقدرة علىٰ التصرف في آسيا الصغرىٰ من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة الىٰ الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلىٰ الحق والإيمان بالله تعالىٰ وكان

(١) السابق ص ١٢-١٣.

حريصًا علىٰ الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعىٰ في بسط سلطان الحق والعدالة، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معاديًا لأهل الكفران.

انتهاء الرحلة

في هذه الرحلة رأينا كيف تحول مسار التاريخ تمامًا بظهور رجل معين هو عثمان، وقيمة الرجال وعظمتهم لا تقاس بطول العمر، ولا بكثرة المال، ولا بأُبَّهة السلطان.. إنما تُقاس بالأعمال الخالدة التي تغيّر من وجه التاريخ، ومن جغرافية العالم، وهي في الوقت نفسه تثقل في ميزان الله عز وجل. وستبقىٰ صفحة عثمان في التاريخ بيضاء ناصعة، شهد لها الأعداء قبل الأولياء، ولعل ما يحسن به الختام الآن شهادة الكاتب والسياسي الفرنسي «دي لامارتين»، إذ يقول:

«كان الغازي عثمان ذا طباع هادئة، ولكن أكثر ما يميزه هو عدالته وصدقه. وقد استثمر ذكاءه وقدراته في سبيل إعلاء كلمة الله ومحاربة الاعتقادات الباطلة والعبادات الوثنية والقضاء عليها. كان يتقدم رُوَيدًا رويدًا علىٰ هذه الطريق، ولكنه لم يتراجع علىٰ الإطلاق. وكان يتحلىٰ بالقدرات التي تخوّل أصحابها تأسيس أعظم الدول، ووضع أركانها. فقد كان يمتاز بطيبة القلب، وصدق

الكلام، والوفاء لعائلته، وكان رؤوفًا ومحبًّا لأبنائه»[1].

إن عثمان كان رجلًا عظيمًا بمعنىٰ الكلمة، ولم تكن هذه العظمة محدودة بزمانه ومكانه؛ بل تكمن عظمته الحقيقية في أنه رسم خطًّا واضحًا للحركة في الحياة، سارت عليه ذريته مِن بعده! إنه بذلك قدوة ولا شك، وخطواته تحتاج إلىٰ دراسة، وسيرته تحتاج إلىٰ نشر وإعلام؛ لأنه بحسن تربيته لأبنائه وعائلته وإعداده لجيشه وشعبه وإدارته لدولته ترك آثارًا لن تُمحىٰ من التاريخ بسهولة؛ بل لعلها لن تمحىٰ من التاريخ مطلقًا!

لقد زرع عثمان البذرة الأولىٰ في شجرة الدولة العثمانية، لتكون إمبراطورية كبرىٰ استمرت نحو ٦٠٠ سنة من تاريخ البشرية، تعهد سقايتها أبناؤه فمنهم من طاب حصاده ومنهم من عطِب، وانتهت قصة عثمان، وانتهت أيضًا الدولة العثمانية، ومات الصالحون، ومات الطالحون ومات الجند الظالمون، ومات الجند المؤمنون.. ومرَّت الأعوام والقرون، وذهبت الديار والرجال والقلاع والحصون؛ ذهب كل شيء.. ولم تبق إلا العبرة، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١].

***

(١) شيمشيرغيل، سلسلة تاريخ بني عثمان، مرجع سابق.

المؤلف في سطور

أحمد طاهر عبد الحميد المنزلاوي

- من مواليد الإسكندرية.
- ليسانس اللغة العربية وآدبها، ودراسات إسلامية - كلية دار العلوم.
- باحث ماجستير في النقد الأدبي بكلية الآداب – جامعة المنوفية.
- عضو اتِّحاد كُتَّاب مصر.
- عضو الاتحاد الدولي للغة العربية – بيروت.
- عمل باحثًا في مركز الحضارة للدراسات التاريخية.
- عمل مصححًا لغويًّا بصحيفة الوفد – البوابة الإلكترونية.
- مدرب دولي في فنون وطرائق الكتابة الإبداعية – الأكاديمية الدولية للفنون والإعلام والإبداع (IAAMC) –الولايات المتحدة الأمريكية.
- استشاري موارد بشرية (HRCP) - المجموعة العربية للتدريب.
- يكتب في عدد من الصحف والمدونات، مثل: (مجلة الوعي الإسلامي - قصة الإسلام – بوابة الوفد – ساسة بوست - رقيم).
- له خبرة في تدريب الكُتَّاب وعقد ورش الكتابة الإبداعية.
- له اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي دراسة وتدريسًا وتحقيقًا.
- مؤسس مبادرة «صحح تاريخك».
- **نُشر له نحو ٣٥ كِتابًا ورواية أشهرها:**

* رواية: حديقة الموت.
* رواية: وبينهما حجاب.
* مجموعة قصصية: حلم أبتر.
* بُن محوج (مقالات أدبية).

* كيف تكتب رواية أو قصة قصيرة.
* مهارات الكتابة والتأليف.
* مُسْتَطَر (مقالات دينية).
* مهارات التفوق الدراسي.
* سنة أولىٰ جامعة.
* أرطغرل.. قصة بناء وطن.
* للتاريخ أقوال أخرىٰ.
* عثمان بن أرطغرل.. قصة تأسيس الدولة العثمانية.
* فصوص ونصوص.
* الخُلق المفقود.
* النائمون لليقظة.
* قصص العاشقين.

- له العديد من التحقيقات لأمهات كُتب الأدب والتاريخ، منها:

* كتاب «ألف ليلة وليلة»(٤ مجلدات).
* كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس الحنفي (٤ مجلدات).
* كتاب «خلاصة تاريخ الدولة العثمانية» لشكيب أرسلان.

للتواصل مع المؤلف:

https://www.facebook.com/mr.ahmad.almanzalawy

ولمتابعة أخبار ومواعيد ورش ودورات الكتابة:

https://www.facebook.com/almanzalawy.workshop

وللانضمام إلىٰ مبادرة صحح تاريخك:

https://www.facebook.com/almanzalawy.workshop

صحح تاريخك

احمد المنزلاوي

الفهرس

المقدمة ٥

الباب الأول: ما قبل الحكاية ١١

تمهيد عن العصر ١٣

صراع وضياع! ١٩

قبيلة القايي..... ٢٧

الحياة الاجتماعية للقبائل التركية..... ٣١

الخلاص في الهجرة ٣٣

الباب الثاني: أرطغرل يحمل الراية ٣٩

بطاقة أرطغرل..... ٤١

أرطغرل يخلف والده..... ٤٤

البحث عن وطن..... ٤٥

الأناضول المنشود..... ٥١

«ياسي جمن» وبعث أرطغرل..... ٦١

الجائزة وطن..... ٦٨

إقطاعية سوغوت ٧١

أرطغرل مُربيًّا ٨١

الباب الثالث: رحلة عثمان..... ٨٥

نشأة عثمان..... ٨٩

عثمان في تكية أده بالي ٩٧

قره عثمان ١٠٤
الحب الأول ١٠٦
من حُب إلى حَرب ١٠٧
زواج عثمان ١١٠
وفاة أرطغرل ١١١
عثمان يرفض الإمارة ١١٣
الحُلم المقدس ١١٦
الزواج السعيد ١١٩
عثمان غازيًا ١٢٢
موقعة إيكيزجا (التوائم) ١٢٢
فتح قَرَاجَه حِصار ١٢٤
استمرار الغزو على حدود بيزنطة ١٢٨
وإن جنحوا للسلم ١٢٩
محاولة اغتيال تتحول إلى فتح ١٣١
الطريق إلى السلطنة ١٣٤
تعيين رسمي لزعامة القبيلة ١٣٤
استقلال عثمان بالإمارة ١٣٧
عثمان على كرسي السلطنة ١٤١
تحديات في مسير السلطنة ١٥٩
الحشد البيزنطي ضد عثمان ١٦٥
معركة قويون حصار (بافيوس/ pafeus) ١٦٦

معركة دينبوز ١٦٩
أول هزيمة أمام بيزنطة! ١٧٠
فتح يني شهر وما حولها ١٧٣
إعادة ترتيب البيت وبناء الدولة ١٧٦
حُلم القسطنطينية ١٨٩
توسعات وفتوحات جديدة ١٩٢
فتح إزنيك: ١٩٣
إسلام كوسه ميخال ١٩٦
حصار مدينة بورصه ١٩٨
وحال بينه الأجل ٢٠٠
أورخان يستكمل الحصار ويفتح بورصه ٢٠٢
الوداع الأخير ٢٠٨
دولة عثمان ٢١٠
وصية ودستور ٢١٢
أهم الصفات القيادية المميزة في شخصية عثمان ٢١٥
انتهاء الرحلة ٢٢٢
المؤلف في سطور ٢٢٤